اشتريت هذا الكتاب من مكتبة شكري في مدينة إدلب ب ٦ دولارات.
أبو عبد الله

وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ

فِي مَيْدَانِ
التَّعْلِيمِ وَالبَحْثِ العِلْمِيّ وَعُرُوبَةِ اللِّسَانِ

بدأت بقراءة هذا الكتاب قبل أذان العشاء من يوم الخميس ١٥ شباط ٢٠٢٤
وهذه المرة الثانية التي أقرؤه
أبو عبد الله
الرتياني

تأليفُ الأستاذِ الدكتور
فخر الدين قباوة

الطَّبعةُ الثالثةُ
مُصحَّحةٌ ومَزيدٌ فيها

دار اللُّباب

الطّبعةُ الثّالِثةُ

١٤٣٨هـ-٢٠١٧م

9 786058 245112

دار اللُّباب
للدِّراساتِ وتحقيق التُّراث

تركيا - اسطنبول - الفاتح - اسكندر باشا - كزتاش - مفرق بنك الكويت

مقابل مستشفى الفاتح - بناء رقم ٧ - ط ٥

İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

Tel: 00902125255551 - Mob: 00905454729850

Www.allobab.com - Email: info@allobab.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

محب

كريماً

بقصد الشيخ: دار اللباب بحلب

أحمد الله ـ تعالى ـ أن جعل في هذا الكتيّب بركة واسعة، ويسّر له قبولًا طيّبًا كريمة في صدور أحبابي من العلماء والدارسين والباحثين، بل كان نشره الأوّل في مكتبة صارت مشهورة به أنها مكتبة «ولا يزالون»، واستطاعت أن تشق طريقها بنجاح بين أمواج المكتبات العريقة في النشر. ثم فتح الله لي بهذا الكتيب المتميّز في موضوعه وعرضه، فتح لي أبوابًا عظيمة من البحث والتحقيق لنصرة الإسلام والمسلمين وعروبة القرآن الكريم في كتيّبات ومجلّدات، سيكون لها آثار عظيمة في مسيرة العلوم الإسلامية، إن شاء الله عزّ وجلّ.

من أوهم ؟

وها أنا ذا أدفعه إلى طبعته الثالثة، وقد صوّبت ما كان فيه وهم أو خلل، ونقّحت بعض معلوماته، وزدت فيه ما اكتسبتُه من خبرة وتجارب خلال السنوات الماضية، تسدّد الخطا وتساعد على وضوح الرؤية والنشاط في العمل الكريم، وفتحت بالبيان ما كان مغلقًا من الرموز المجازية لتتعيّن مقاصده، ثم وضعته مع باقة من كتبي بين أيدي إخوتي الأحباب المشرفين على «دار اللباب»، ليكون في تنسيقه متميّزًا بالدقّة والصفاء وفي إخراجه نموذجًا في الجمال والأناقة.

وإنني لأسأل المولى ـ عزّ وجلّ ـ أن يزيده بركة وفضلًا، ويجزي الناشرين توفيقًا في عملهم المبارك، وأجرًا حسنًا في الدنيا والآخرة، ويوفّق من يطّلع عليه في أن يخدم

الأمّة الإسلامية بإنقاذها من الحروب التي تغمرها خلال ميادين العلوم والأعمال المختلفة، ومن الفتن التي يثيرها الحُلفاء وأنصارهم من الروافض وطواغيت زعمائنا المنافقين الجبناء الجهلاء، وله الحمد أوّلًا وآخرًا.

إستنبول في ١ رجب سنة ١٤٣٨

الموافق ٢٩ آذار لعام ٢٠١٧

* * *

المقدمة

كلُّ الحمد لله أن تفضّل علينا بالإيمان، وفتح لنا باب الجهاد إلى يوم القيامة، وجعله أحب الأعمال إليه. وأفضلُ الصلاة والتسليم على النبي الكريم ﷺ، الذي كان رزقه تحت ظلّ رمحه، وبشـّر بالذلّة والصَّغار من خالف ذلك، وحكم على من مات ولم يجاهد المعتدين، ولم يحدّث نفسه بجهادهم، بأنه يموت على شُعبة من النفاق، ثم كان النبي نفسه ﷺ قُدوة لنا في البذل والتضحية والفداء، فما زالت أكلة خيبر تُعادُّه حتى انتقل شهيدًا إلى الرفيق الأعلى.

وإذا كنا قد حُرمنا لقاء العدوّ في ميادين القتال، وضُيّق علينا بذل الأموال، وفُرض علينا أن نكون مع الخوالف، باسم السعي للاستسلام، وترقُّب الضمير الإنساني والوضع الدولي وارعواء المعتدين زبانية الإرهاب العالمي والاحتلال للبلاد والعباد، فإن رحمة الله ـ جلت حكمته ـ أوسعُ من أن تغلِق في وجوهنا الأبواب، وتسد علينا منافذ النجاة.

فقد فَتحتْ لنا رحمتُه الواسعة سبل الجهاد بالفكر والقول والخطاب، حين أمرتنا بمقولات النبوّة أن نغير المنكر باللسان إذا قُيّدت اليدان، وجَعلتْ أفضل الجهاد كلمة حقّ تقال في وجه الطغيان. ها قد تيسّرت لنا وسائل العمل الكريم في سبيل الله، وأصبحنا مُعْفَين من ترقُّب الضمائر المستهلكة والأوضاع المسيَّرة في ركاب البغي والبِغاء والتسلّط والاستعباد، لنوقظ بالبيان قومنا الغافلين:

لا خَيـلَ عِنـدَكَ، تُهدِيهـا، ولا مـالُ   فلْيُسـعِدِ النُّطقُ، إن لَم تُسـعِدِ الحالُ

والحـروب التي شُـنّت علـى المسـلمين، منذ أول أيـام البِعثـة المباركة، كانت ولا تـزال ذات صـور متعـددة الأشـكال، مـن التهديـد والقتـل والتشـريد والمكايد والفتـن والإفسـاد والمجابهـة للقِيَـم والمُثـل بالتسـفيه والهجـاء والإحبـاط. وقـد تلقـى النبـي ﷺ والصحابـة الكـرام كل بغـي مـن صناديـد الكفـر، بالصبـر والحلم انتظـار الارعـواء والرجـوع إلى سـبل الرشـاد.

ولكنْ تطاوَلَ أمد الانتظار، وتبيّن لهم بخطاب المولى ـ عزّت كلمته ـ أن الأمل في موادعة المشركين والكافرين للمسلمين ميؤوس منه ميؤوس، وأن المعركة أزلية أبدية، لا يُرتجى لها انقطاع أو خمود، ﴿ولا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُم، حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُم، إنِ استَطاعُوا﴾. فالمشركون والكافرون والملحدون مُحال أن يسالموا الإيمان وأصحابه، ما دام فيهم حياة أو قدرة أو نشاط.

ولهذا فقد ألقى المسلمون الأوائل عنهم شعار الصبر والحلم، وشرعوا يكافئون كل أسلوب حربي بما يقابله ويماثله. فالتهديد بالوعيد يُكبح، والحديد بالحديد يُفلح، والنار بالماء تُخمد، والكيد بالوعي يُفسد، والتسفيه بالإصرار يُمحق، واللسان باللسان يُطرق شعرًا ونثرًا وخطابة وكتابة. ثم طال الصراع وامتدت معاركه الحديدية والفكرية حتى كان النصر للحق، وكان للباطل هزائم وتضعضع واستكانة. ولكنه قد بقيت منه شراذم خفية أو ظاهرة في أصقاع البلاد، تؤرّث لهيب الثأر، وتثير الحروب تلو الحروب، إلى أن يرث الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الأرض ومن عليها.

وعلى ذلك، فنحن حقبة من التاريخ الأبدي في الحياة، يعيد علينا بعض صفحاته، ويذكّرنا بما كان من الآباء والأجداد، لنبقى بوعي وهداية، نسير في السبيل

التي شرعوها، ونستعين بالوسائل التي اتبعوها، في مقابلة الزحف الرهيب من عساكر البغي والعدوان.

وها قد لزمنا حدود الصبر عشرات السنين، نعلل أنفسنا بمواعيد السلام الكاذب، ونمني قلوبنا باستجابة المعتدين لصوت الضمير والعدل، حتى تكشفت الأيام عن الحقيقة الربانية الراسخة، أنه لا وفاق بين الحق والباطل، ولا سلام بين الكفر والإيمان، ما دام في الأرض بشر وشيطان. وهاهي ذي الحرب تُشن علينا من كل جانب بأيدي الأعداء وعملائهم طواغيت المنافقين، متعددة الجبهات والألوان والأساليب والوسائل والمستويات، بحيث لا ندري، كيف نتوجّه؟ كما قال المتنبي قديمًا لسيف الدولة:

وسِوَى الرُّومِ، خَلفَ ظَهرِكَ، رُومٌ فعَلَى أيِّ جانِبَيكَ تَمِيلُ؟

قد يقال: ما ذكرتَه من الآية الكريمة قبلُ هو خاص بالمشركين والكافرين، وأنت اليوم إزاء أهل الكتاب. فكيف تجمع بين هؤلاء وأولئك؟ ونقول: أما اليهود فقد أعلمنا اللهُ ـ عز وجل ـ أنهم أشد الناس عداوة لنا، وأنهم نقضوا مواثيقه مرارًا فلا عهد لهم ولا ذمّة، ومحال أن ينزعوا عن أنفسهم تلك السمات الوراثية الوحشية. وأما بقية أهل الكتاب ففريقان:

فريق قالوا: «إنّا نَصارَى»، وتحسّست قلوبهم سماحة الإسلام وقرب منبعه من مشاربهم في الدين، فكانوا أقرب الناس مودة إلى أصحاب الإيمان والصلاح، يخالطونهم ويعاشرونهم بالألفة والصفاء والوئام. وهؤلاء هم الذين عاشوا في ديار الإسلام من أيامه الأولى إلى عهدنا هذا، في جماعات النصارى من تغلب ونجران وما عرف من مذاهبهم في الشرق الإسلامي كله. وها هم أولاء يكابدون في فلسطين

وغيرها بعض ما يعانيه المسلمون، ويشاركونهم الرفض للاحتلال والطغيان. ويعلن آباؤهم الروحيون أنهم جزء صميمي من الكيان العربي أو الإسلامي المنكوب.

وفريق أعمت قلوبهم الأحقاد السياسية المتأصلة، وغمرت نفوسهم منازع التسلط والاستعلاء والبطش، وأعمت عيونهم مطامع السلب للأمم والشعوب والأوطان ومنابع الثروات ومناجم الطاقات والقدرات، فنسوا نداء المسيح - عليه السلام - وخرجوا عن النصرانية من أوسع سبيل. فقد أعجبتهم دخائل اليهود، بما فيها من سخطٍ على كل خير واستباحةٍ لكل أرض ومال وعرض، وسعادةٍ بنشر الفساد والشر والعدوان باسم التوراة والتلمود.

أعجبتهم تلك الانحرافات الشيطانية، فركبوا مطاياها وانقادوا لسراديبها وكهوفها، يضاهئون جرائم اليهود، وينقادون لما رسموه لهم من مسارب البغي والبغاء والبطش والإرهاب. وبهذا صاروا هم مطايا لأحابيل تلك القيادات، حتى لقد برؤوها من الصَّلب على لسان البابا في بلاد الغرب. فهم الآن قد صاروا من طينة واحدة، وخلفهم جماعات اليابان والصين ومن لفّ لِفَّهم من الوثنيين والشيوعيين الملحدين، وفئات من طواغيت المتمسلمين بيننا هم جواسيس منافقون جُبناء يتاجرون بالقيم والشعوب والأوطان. فلا عجب أن يكونوا أمثال المشركين ومن كان معهم في التاريخ القديم.

فنحن الآن في الخندق الذي كان فيه أجدادنا المسلمون، ومِن حولنا اليهود وأنصارهم والمشركون والملحدون والمنافقون، العدو هو العدو، والعدوان هو العدوان، والأحلاف هم الأحزاب والحلفاء، والخندق يحيط بنا من كل صوب بأنواع الحروب حديدًا ونارًا، وقتلًا وتهديمًا، وفتنة وتسفيهًا، وبطشًا وتسلطًا،

واستباحة واستعبادًا باسم العَولمة البَوشيّة المريرة. فلا بدّ أن نقابل كل ضرب بنظيرة وكل صوت بمثيله.

وهذه كلمات طيبات، هي خلاصة تجربة لي خلال نصف قرن من الزمان، في جميع مراحل التعليم وكثير من الأقطار العربية، تفتح أعين العرب والمسلمين على ما وصلنا إليه في ميادين التعليم والبحث العلمي في لبلاد المسلمين ولغة القرآن الكريم، بعد أن استسلمنا للعدو الغاشم، ونحن نوهم أنفسنا أنه صديق مخلص من الناصحين. لقد نسينا ما كان في التاريخ من مزاعم النصح والإرشاد، على لسان إبليس ليخرج آدم وحواء من الجنة، وعلى أفواه إخوة يوسف ليطرحوه أرضًا أو يلقوه في غيابة الجب.

تلك هي آثار ما تنصحنا به الدول الصديقة العدوّة المنافقة، نحصد منها ألوان الدمار في المشرق والمغرب، وصيحات التهديد بالهدم والقتل والتشريد، واقتحامات المدن والمخيمات والمنازل والمساجد والمدارس والمستشفيات بالحديد والنار، وغارات الإبادة والزلزلة والفناء، ونحن عاجزون عن المجابهة لأننا مسالمون ننتظر وفاء الصداقة والولاء.

فزعماء البلاد الإسلامية منافقون جبناء يقولون: ﴿إنَّ بُيُوتَنا عَورةٌ﴾. ونحن ـ علماءَ العروبة والإسلام ـ نقول: ﴿وما هِيَ بِعَورةٍ. إنْ يُرِيدُونَ إلّا فِرارًا﴾. وهم يقولون: ﴿شَغَلَتنا أموالُنا وأهلُونا﴾ و﴿نَخشَى أن تُصِيبَنا دائرةٌ﴾. ونحن نقول لهم: ﴿لَن يُصِيبَنا إلّا ما كَتَبَ اللهُ لَنا﴾، ﴿وإنِ استَنصَرُوكُم في الدِّينِ فعَلَيكُمُ النَّصرُ، إلّا علَى قَومٍ بَينَكُم وبَينَهُم مِيثاقٌ﴾ فأنتم في تعاهد معهم لحاميتهم، و﴿إلّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُم عَذابًا ألِيمًا ويَستَبدِلْ قَومًا غيرَكُم﴾. ثم لا نجد لنا سبيلًا غير الحث على

الجهاد للعدوّ والطواغيت، ورفع الشكوَى إلى الله والدعاء بالعون وكشف الضر والعجز والبلاء، وتوجيه السهام إلى مقاتل الغزو الفكري الخبيث.

لقد كان مولد هذه الكلمات في ندوة لجامعة الإمام بالقصيم منذ بضع وعشرين سنة، لكشف رموز الاستعمار الفكري والثقافي بالديار المصرية، من أمثال، رفاعة الطهطاوي ويعقوب صنّوع وأحمد فارس الشدياق ومحمد عثمان جلال وأسعد داغر وجمال الدين الأفغاني وقاسم أمين وسلامة موسى وأحمد لطفي السيد وعبد العزيز عبد الحق وعبد العزيز فهمي وجرجي زيدان وطه حسين وتوفيق الحكيم وفرح أنطون وأحمد أمين وأنيس فريحة ومحمود تيمور...

وقد تدخلتُ حينذاك بكلمة، ذكرت فيها أن تلك الحلقات المؤسِّسة للنهج الاستعماري الثقافي هي صورة من صور الحروب التي يشنها الأعداء على المسلمين، كما أبلغنا الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿ولا يَزالُونَ يُقاتِلُونكُم، حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُم، إنِ استَطاعُوا﴾، وأنها رأس سلسلة كانت قدوة لنظائر كثيرة لها في جميع الوطن الإسلامي، من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب.

يدأت تلك السلسلة بزعامة محمد على باشا في مصر، إذ نقل نِعَمَ الحضارة الأوربية وبركاتها، كما قال بروكلمان في «تاريخ الشعوب الإسلامية» ص ٥٤٤ ـ ٥٤٦، فجعل قيادة الجيش المصري للفرنسي الكَبِتِن seve، وصادر أملاك الأوقاف، وفرض أساليب التعليم الأوربي مع التدريس باللغات الأجنبية. بل إنه أوفد الشباب الطائشين الماجنين في بعثات إلى أوربة ليعودوا بأساليب الفرْنَجة والدعارة والفساد والدمار، وبذر الخلاف في الأقطار العربية للانقسام، ثم سارع إلى احتلال بلاد الشام والجزيرة والخليج بحملات متوالبة، وإلى إثارة الفتن والحروب بين العرب في المنطقة، طمعًا في إضعاف الخلافة وتسنّمه ذروة الأمور في البلاد.

وبهذا دخلت العَولَمة ديار المسلمين منذ قرنين، وانحرف خط التوجّه الإسلامي المستقيم بغباء محمد علي الكبير وخيانته وتآمره، وصارت البلاد مسرحًا للغزوات الاستعمارية والحروب الداخلية بقيادة الأوربيين، وحقلًا لمطامع الكواغيت سماسرة القيم والشعوب، وجاز لنا أن نقول: إنّ الخط الأعوج هو من الثور الكبير، ومنِ استرعى الذئب فلا يسألْ عن النَّعَم.

ونحن الآن بحاجة إلى كشف الأقنعة عن هاتيك الوجوه المستورة والقلوب المُبرمَجة المُدبلَجة التي جُعلت بأحابيل الاستعمار وبشهادات الزور والأباطيل رجالًا للنهضة والإصلاح، وسُمِّي ما يقابلها بعصور الانحطاط. وعندنا في الشام منها عدد وافر ـ والحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه ـ أمثال عبد الرحمن الكواكبي.

فقد تشبّع هذا بالعَولَمة القديمة، لاتصاله بالسلطات الإيطالية وثقافتها، وأراد نقل النظم السياسية من أوربة إلى بلدنا. ولذا دعا إلى تأسيس باباوية عربية في كتاب «أُمّ القرى»، تمثل الجانب الروحي الخالص، ويكون في سائر الأقطار العربية والإسلامية مملكات ودول هي في حلّ من التزام الجانب الوحي وما يتفرع عنه شرائع وأحكامًا وأنظمة وقوانين. وقد سانده في كثير من ذلك أساطين الاستعمار وعملاؤهم، بالفكر واللسان والسلاح والأبدان والذهب الرنان، حتى صار رمز النهضة والفكر والإصلاح والبيان.

من هذا المنطلق كان تدخُّلي يومذاك في ندوة القصيم، وهذه كلماتي الآن في الصفحات توسعة لذلك القول بصفحات سود من زاوية التعليم والبحث العلمي وعروبة اللسان. إنها تفتح جبهات على ثلاثة محاور، مما أفسدته الحرب الفكرية

في بلاد العرب والمسلمين، وجعلتْ كلًّا منها هزيلًا يكاد يشرف على الفناء، لولا رحمة الله بنا وتقدير شيء من الصحوة المباركة، والسعي الحثيث أحيانًا لتدارك ما فات بكشف الداء ووصف البلاء وتبيان سبيل الإصلاح والبناء. وفي هذا بيان للناس.

أمّا المحور الأول فيتناول موضوع التعليم في العالَم الإسلامي، كيف خَطَّط لمسيرته رجال التنصير والاستعمار، بالغزو الثقافي لميادين التربية في المدارس والمعاهد والجامعات والمساجد والنشر والإعلام، وفي مناصب التوجيه والتنسيق والبرمجة، ليخرّجوا لنا شبابًا لا يصلح للأبوة والرعاية والعمل، وفتيات لا يصلحن للزوجية والأمومة والبناء. فقد وُضعت مناهج التعليم العامّة والعسكرية والإسلامية في صور هزيلة قاصرة مشوهة، من مهازل التاريخ والحاضر، ومن المعلومات المسطحة المستهلكة، لتمتلئ العقول والنفوس بما لا يصنع حياة، ولا يترك أثرًا طيّبًا بعد الممات.

وأخطر ذلك ما نقلوه إلى ديارنا من صراع بين العلم والدين، ثم قام فينا من يحاول الوفاق بينهما فأخفق في مسعاه ورجحت كِفّة العلم بين يديه، وحُصرت ميادين الإسلام كلها في رجال دين «يضربون بسيف السلطان المأجور، ومحاكم شرعية» توجّهها الرياح السياسية المستعبَدة للعدوّ، ومقرر دراسي هو «التربية الدينية»، شأن سائر الأديان التي ليس لها نظم سياسية ودولية واجتماعية واقتصادية، ثم يُراد لهذا الطرح التعليمي الخبيث أن يُمسخ تحت اسم آخر أخبث منه هو الأخلاق كما كان في عهد الاستعمار، وقد باشر المجرمون بتحقيق ذلك لولا صحوة الربيع الإسلامي الميمون.

وهكذا يُعبث بالإسلام ليكون مثل سائر الأديان المندثرة، فإذا بالقرآن الكريم والسُّنّة الشريفة والتاريخ المجيد أغانٍ وأناشيدُ في مجالس التطريب والمآتم، ثم انهالت

علينا ألوان الكماليات والزخارف، لنُشغل بها عن إعداد ما يحقق السيادة والحماية والاستقلال، ويردع الغارات الوحشية التي تنصب علينا من كل صوب، وعلى ميادين التعليم في مخطط رهيب، لتشويه الأحداث التاريخية وحقائق العلوم والمعارف.

وأظهر ما يذكر هنا دراسة الإنسان كل إنسان، على أنه حصيلة الوراثة والبيئة، تتغلب فيه الأولى لدى بعضهم والثانية لدى الآخرين. فقد حصروا كيانه بين هذين البعدين، متجاهلين البعد الثالث، وهو الإنسان نفسه. فهو بحضوره المتميز وبما استخلفه الله يتصرف في هذين البعدين كليهما، وقد يتجاوزهما في تكوين شخصيته وحياته، كالذين تخطَّوا عصورهم من التاريخ وشكلوا قممًا من الخير أو الشر لميادين الحياة.

وكذلك كان التجاهل للبعد الرابع، أعني سلطان الله على الإنسان بالوحي والإلهام والهداية، وما يكون عن ذلك في قلب المرء بين أصبعين من أصابع الرحمن. هكذا مسخوا المخلوق البشري، حكموا عليه غِيابيًّا، وألقَوه في غَيابة البيئات والأنساب، كالحيوان يتلمس تحقيق غرائزه في أحط أنواع الحياة.

وأمّا المحور الثاني فيتناول واقع البحث العلمي، في بلاد المسلمين، بعد أن تسلم أزمّته أنصار العِلمانية والغزو الثقافي، ورجالات السياسة الغربية والشرقية، وجعلوه في حيز محدود لا يكون منه تفتح أو بناء أو استقلال. ومن خلال ذلك تبيّنّا ما وضعه الإسلام في أصول البحث والعرفان، وأسّسه علماء العرب والمسلمين من مناهج موضوعية تطبيقية وأساليب تحقق خلافة الإنسان لله في الأرض بين خبر أمّة أُخرجت للناس، سادت قرونًا متوالية بعزة وفخار أمام غزوات الصليبيين والمغول والتتر والباطنيين الخبثاء.

ثم رأينا ما أحدثه الاتحاديون والأوربيون والإنكليز والشيوعيون والاشتراكيون

واليهود في بلاد المسلمين، باسم الأخوة والصداقة والمستشارية والحماية والاستعمار والقومية والوطنية، من تضليل في ميادين العلم وتزويد للموفدين بالأباطيل والترّهات والأبحاث المتهافتة، وفرض للعِلمانية الوثنية المقيت، وتشويه لحقائق الحياة الإنسانية، وتكريس للمفاهيم الاجتماعية المضللة، وحصر لنا مسلمين ونصارى في مستوى دنيء من البحث والإنتاج العلمي، وإلزام بتدريس العلوم باللغات الأجنبية، واتهامات للعلوم العربية والإسلامية بالعسر والجمود، وتغذية للدراسات الأدبية بالمفاهيم الباطلة، ونشر لسلبيات التاريخ وظلمات رجالاته، وحصر للقرآن الكريم والسُّنة الشريفة في زوايا هامشية، وغرس لأباطيل إنسانية واجتماعية باسم الحقائق المسلَّمة...

فقد حُجبت عنا أصول البحث العربي الإسلامي، وفُرضت علينا أشتات من نفايات المناهج المستنفدة، لنبقى في أعمال فضفاضة هشة، تجعل رقابنا دائمًا في أيدي العدو الغاشم. وها أنا ذا أُعلن على الأشهاد أنني لم أجد من يرشدني إلى أصول البحث غير الكتب المترجمة عن تلك النفايات، وفيها آثار اليونان وما تفرع عنها منذ قرون في الغرب الكافر والملحد. وقد لبثت أبحث وأدرّس وأصنّف ٤٠ سنة في تيه يهودي خبيث بلا مَنّ ولا سلوَى ولا غمام يمنع الهلاك ولا اثنتي عشرة عينًا تمسح الظمأ إلى النهج الإسلامي، شأن زملائي جميعًا، بتوجيه هاتيك الأصول المضطربة المندثرة، من دون نهج واضح ولا قدرة عملية رائدة إلّا فُتاتًا من صنائع رجالاتهم، لا تسمن ولا تغني من جوع.

وفي هذه المتاهات المتراكبة من الضياع والظلام، شرعت أوجّه طلاب الدراسات العليا إلى منهج البحث بضع سنوات، وأنا أظنني أُرشد إلى منهج علمي قويم، ثم تبيّن لي أنني في ضلال وتشتت، إذ اطلعت على أصول البحث الإسلامي

وما أنتجته من حضارة إنسانية خالدة، فشرعتُ أدعو إلى مَسلمة البحث العلمي، وتكوين منهج عربي يناسب الحاضر والمستقبل.

وأمّا المحور الثالث فيتعرضُ للّغة العربية، وما سُلِّط عليها من الغزو والإرهاب، فيبسطُ خفايا العَولَمة العدوانية وما تقتضيه دعوات الإصلاح من الحكمة والموعظة الحسنة، ويفضح استسلامَ المسلمين لمزاعم رؤوس البطش والفتك والتدمير.

ثـم يعـود بنـا إلـى مـا كان علـى العربية مـن غـزوات تاريخيـة رجـع أصحابها بالتعـرُّب أو الانهـزام، وإلـى تاريخ العربية منذ عهـد إرم ذات العماد، وتـوزُّع أبنائها منـذ عشـرات آلاف السـنين والعشـرات فـي بلاد الوطـن العربـي الحالي، لتشـكّل لهجات مسـتعجِمة مـن آراميـة وفينيقية ونبطيـة وأكّادية وسُـريانية وقبطية وحبشـية وبربريـة وتركيـة ونوبيـة... ولتتميـز اللغة العدنانية الفصحى بالسـيادة فتكون لسـان الوحـي الربانـي، وتسـتعيد الحيويـة والنمـاء في جمـع الأخقـاب، رغم مـا داهمها مـن النكبات والتسـلط والمغـازي الثقافيـة المخربة.

الأحقاب

وتفسير هذا كله مرده إلى ما منح الله ـ تعالى ـ هذه اللغة الكريمة من قدرات ذاتية كامنة، تتفتح بالنماء والعطاء على الألسن والأقلام والأفهام. وقد كشف تلك القدرات علماء أفذاذ، كالخليل بن أحمد وأحمد بن فارس وأبي علي الفارسي وأبي الفتح بن جني، فكان بين أيدينا الفتوحات النظرية والعملية التي تمتلكها لغة القرآن الكريم، في ميدان الألفاظ من طاقات تكاثرية لامتناهية، عن طريق تقاليب الأصول الحرفية لصياغة المفردات، وفي ميدان المعاني من تبثير للدلالة الوضعية ضمن الحَدَث النحوي وتحديد منابع أصيلة تتوزع سياقاتِ الحروف في الألفاظ، وفي الاشتقاق الأكبر من ارتباط دلالي بين المفردات رغم تبادلها مواقع الصياغة، وفي الاشتقاق الكُبار من ترسيخ ذلك الارتباط، مع تبدل بعض الأحرف، أُحاد ومثنى وثلاث.

والجدير بالذكر أن هذه الخصائص اللغوية كانت حاضرة في أذهان وألسنة أجدادنا القدماء، يوظفونها في إنجاز الخطاب وتوليد ما يملأ حاجاتهم التعبيرية في الشعر والنثر والعلم والعمل. ولكن بعض الأجيال المتأخرة حجّرت واسع اللغة الكريمة المعطاء، وسدت باب القياس والاجتهاد، وانصرفت إلى العُجمة والهُجنة والاستنساخ والاستنسال، فكان بين أيدينا تركة غنية مغفلة، تقتضي الجِدّ والجهاد لبعث تلك الطاقاتِ الربانية في عروبة اللسان، وبرمجتِها في الأجهزة التِّقنية المعاصرة، بغية ملء الخلايا الشاغرة من حقول اللفظ والدلالة بالمفردات اللازمة لما يستجد من معان وتجارب وأحداث وعواطف وخيال. ويرافق ذلك كله إجراءاتٌ عملية تغذي الصحوة اللغوية، وترسّخ لها مواطئ الأقدام ومجالس الكرام.

وقد تخللت هذه المحاورَ الثلاثة ضروب من التفسير والبيان ونماذج من الوقائع والأمثلة الموضحة للمقال، وخُتم كل منها برسم السبيل السوي لعلاج القصور العربي، وما يعانيه في حياته التعليمية والمنهجية واللغوية، لتكون المعالجة إيجابية فعّالة ناصحة، لا سلبية تبكي الديار والأطلال، وتنعى الأوطان والرجال.

ولَزِمتُ في كثير من تلك العروض للواقع والمستقبل المنشود أن أوثّق المعلومات بالمصادر والمراجع العلمية المعتبرة، وأوسّع دوائر الدلالات الحقيقية للمآسي والمباهج، وأفتح في النفوس منافذ البِشر والتفاؤل والنجاح، وأعرض بعض الجوانب الاستطرادية المتشعبة لدعم المقاصد بالأُطر العامة المضيئة. وفي خلال ذلك أيضًا تناثرت حقائق ثقافية وسياسية واجتماعية أغفلتُ توثيقها لأنها أمور واقعية مسلّم بها، عاصرها إخواني وأبنائي في جميع أقطار العروبة والإسلام، وعاشوا في مطاويها حتى إن بعضهم هم أعلم مني بها.

وكنت أُعِدُّ هذا الكُتَيِّبَ الرائد عنوانًا لمسيرة في البحث والتأليف ومنطلقًا لسلسلة من الكتب المتوالية، تعالج بنفس المنهج والأسلوب جميع أحوال العرب والمسلمين وأوضاعهم الفكرية والفنية والتربوية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والمالية والتشريعية... لكشف ما زرعته أيدي المستعمرين والطواغيت ونفوسهم من أشكال التخريب والإفساد، والتوجيه إلى الطرق المسدودة والعجز والاستسلام، والسير في ركابهم بكل رضًا وطواعية واستخزاء. حتى إننا دخلنا متاهات الجاهلية، وعاد الدين بيننا غريبًا كما بدأ.

غير أن انشغالي بالموضوعات اللغوية والعلمية والأدبية وما أتابع فيها من بحث وإنتاج، وضيقَ خبرتي وذات يدي في تلك الميادين المتعددة الجبهات والمستويات، كل ذلك حال دون متابعة المسير في تحقيق مارسمت. فلعل الله يفتح قلوب رجالات الكلمة والقدرة والوفاء، ليسدوا هذه الثُّغُرات بما يحقق الرجاء ويكشف صور البلاء، بأبحاث مخلصة وفية تستهدي بضوء ما ذكرتُ من الأصول والتفصيلات، وتتابع المسيرة في كل خندق من صراعنا الأبدي نحن وزبانيةِ البغي والعدوان.

وعسى أن أكون قد أدَّيت جانبًا من الأمانة العلمية، بعد أن منحني اللهُ ـ سبحانه ـ والأمةُ والوطن علمًا وتجربة ومعارف واقعية، بممارسة التعليم والبحث والتحقيق والتقويم والإشراف على الإنتاج العلمي في كثير من بلاد العروبة. وقد آن لي أن أرد بعض الجميل، لأتمّم ما نشرتُه من قبل في حقول التأليف والتحقيق وفي مجالات الدرس اللغوي تحت العناوين التالية:

افتحوا الأبواب لأفصح من نطق بالضاد، وتحليل النص النحوي ـ منهج ونموذج، وتطور مشكلة الفصاحة والتحليل البلاغي وموسيقى الشعر، والمهارات

اللغويـة وعروبة اللسـان، والاقتصـاد اللغوي في صياغـة المفـرد، والتحليل النحوي أصولـه وأدلتـه، ومشـكلة العامـل النحـوي ونظريـة الاقتضـاء، ووظيفـة المصـدر فـي الاشـتقاق والإعـراب، وإشـكاليات البحـث والنقـد النحوييـن، وعلـم التحقيق للمخطوطـات العربيـة، وإحياء البحـث العلمي الإسـلامي، وقراءة موجَّهـة لمصادر التـراث فـي رحـاب المكتبـة العربيـة ـ مناهـج ونمـاذج، وتفسـير الجلالين الميسَّـر، والمفصّـل فـي تفسـير القـرآن الكريـم، وتاريـخ الاحتجـاج النحـوي بالحديـث الشـريف، والنهـج الإسـلامي فـي التعليـم العالـي، والأسـباب الشـرعية للمغـازي والجهـاد الإسـلامي وصدى الوحي والشـعر في ذلـك، والإعراب المنهجـي للقرآن الكريـم، والنظريـة الإسـلامية فـي نشـوء اللغـات وتطورهـا، وطه حسـين فـي ميزان اللغـة والأدب، وتحقيـق ريـاض الصالحيـن، وإعـراب ريـاض الصالحين.

ألا هل بلغتُ؟ اللهمّ فاشهد. بلغ (١)

كلية الآداب بجامعة حلب

في ١١/ ٥/ ١٤٢٣هـ

و ٢٠/ ٧/ ٢٠٠٢م

الأستاذ الدكتور

فخر الدّين قباوة

* * *

استأنفت قراءتي الثانية للكتاب عصر يوم الثلاثاء ٢ تموز ٢٠٢٤م. أبو عبد الله

ولا يزالون يقاتلونكم...

١

في ميدان التعليم*

تلقى دعوات الإصلاح في تاريخ البشرية مناعة صارمة ومقاومة حادة، بضراوة وخبث وشراسة من المجاورين والبعداء، مهما اختلفت منازعهم وتعددت مشاربهم. ذلك لأن خطر الصلاح يهدد منافعهم، فتقوم بينهم جسور وقنوات ظاهرة وخفية، لينشأ حلف عدواني موحد من التعاون والتكاتف والتآزر:

والنّاسُ حَربٌ علَى الأحرارِ، مُذ خُلِقُوا   يـا شَقْوةَ الحُـرِّ، فـي دُنيـا الأرِقّـاءِ!

وكم تتعدد صور العدوان هذا، بأشكال من الكيد والتآمر والإيذاء، حتى تضعف حركة الخير، وتخمد أنفاسها الأخيرة! إذ ذاك تقر عيون المتآمرين، وتهدأ نفوسهم وحركاتهم، وتنصرف إلى صراع مرير بين أطرافهم.

هذا ما عرفه تاريخ الرسل والأنبياء، وحركات الإصلاح للإنسان والأمم. فقد تألبت قوى الشر في كل زمان ومكان على أصحاب الدعوات وأنصارها، ووجهت إليهم مختلف ألوان الأسلحة، بالتعذيب والتشريد والقتل أو الإغراء والإفساد والتشويه، حتى طفئت تلك الشعل الإيمانية، أو ضعف نورها وخفتَ، فإذا بإرادة الله جل جلاله تجدد مسيرة الدعوة، وتبعث في الدنيا من يحمل مشاعل الخير والصلاح. و﴿تِلكَ الأيّامُ نُداوِلُها بَينَ النّاسِ﴾(٢).

---

* نشر هذا الموضوع في العدد ٦٧ من المجلة الإسلامية الصادرة في دمشق.

(٢) الآية ١٤٠ من سورة آل عمران.

الكيد للإسلام:

وهكذا نشأت الدعوة الإسلامية في بيئة مناهضة من جميع الجهات. فالمشركون في أصقاع الجزيرة العربية ورجال اليهودية في معاقل من الجنوب والشمال وأباطرة الروم في مصر والشام وبيزنطة وأكاسرة الفرس في الشرق القريب والوثنيات المتعددة تتوزع بقاع العالم، وأكثر هؤلاء يخشى تهديد مصالحه، ويدفع كامل قواه وقدراته لإطفاء نور الإيمان ومسح بوارق الصلاح. ولذلك قامت الأحلاف الخفية والظاهرة بين هذه الأطراف القريبة الحاقدة، فكان على المسلمين عدوان من جميع الجهات، لا ينجون من غزو إلّا ليدخلوا غيره في قرون تطاولت آفاقها إلى اليوم. فقد رأينا اليهود والمشركين يتحزبون في صف واحد، ثم يستعْدُون بعض رجال النصرانية والوثنية من كل صوب لإيقاف الزحف الإسلامي ورد أمواجه المتنامية النصر والتفتح والإشراق. ﴿ويأبَى اللهُ إلّا أن يُتِمَّ نُورَهُ، ولَو كَرِهَ الكافِرُونَ﴾[1].

تلك حقيقة أزلية أبدية، يعرفها الصغير والكبير، وتصبغ وجه التاريخ في جميع الأصقاع والأحقاب. وقد أعلمنا ربنا العلي القدير بوضوح وخلود أن الأعداء لا يلقون السلاح، ولا يتركون وسائل الكيد والتآمر ما دام فينا إيمان وصلاح: ﴿ولا يَزالُونَ يُقاتِلُونكُم، حَتّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُم، إنِ استَطاعُوا﴾[2] فالعداء قائم دائم، شئنا أم أبينا، يتأجج في صفوف الحاقدين وقلوبهم وتحركاتهم، ويتدفق علينا من جميع الجهات المادية والمعنوية، وكل منّا على ثُغرة من ثُغَر الإسلام. فلا يؤتَيَنَّ من قِبَلِه.

---

(١) الآية ٣٢ من سورة التوبة.

(٢) الآية ٢١٧ من سورة البقرة.

والقتال هذا لا يقتصر على الأسلحة والأجساد، وإنما هو خصام خبيث، يستخدم المكر والدهاء والمغريات ووسائل الدس والتخريب والإفساد وزرْع الفتن والأمراض والجهل والضياع ونشْر الدعارة والفواحش والمسكرات والمخدرات وتشجيع الخيانة والخلاف والشقاق والانقسام وترسيخ الظلم والبغي والاحتيال. وبعبارة واحدة، إنه يفتح علينا نيران عدوانه من جميع الجبهات، ويسلط منها في كل مكان أو زمان، ما يراه أنجع وأقدر على المسخ والتشويه.

والمسلمون يعرفون هذا في قرارة أنفسهم، ثم ينسونه في زحمة الحياة، ويظنون أن وجه التاريخ قد ابيضّ، وأن الخصومات الأبدية قد نزعتها حمامات السلام، وغرست في ساحاتها أغصان الزيتون والآس والريحان. ذلك لأن الدين الإسلامي يعلِّم أبناءه إرادة الخير للجميع والسعي لتبليغه ونشره، ولا يرضى لهم أن يكون منهم عِداء لأحد. فالآيات والأحاديث الصحيحة يرد فيها دائمًا ذكر العداوة من طرف واحد، هو صفوف الكافرين والمشركين والملحدين، ولا تجد عبارة واحدة منها تقرّ للمؤمن أن يوصف بالعِداء.

وقد أوهم هذا التوجيه النبيل آباءنا وأبناءنا أن غيرنا قد يكونون كذلك في نفوسهم وعواطفهم وسلوكهم، فنفذت فينا أقنعة المكر والخديعة والائتمار أعوام القرن الأخير من الزمن، وانطلت علينا بوارق التزييف، وسَلِسَ قيادنا للدعاوى الكاذبة، ناسين أو متناسين قول زفر بن الحارث[1]:

وقَـد يَنبُـتُ المَرعَى، عَلَى دِمَـنِ الثَّرَى ... وتَبقَـى حَزازاتُ الصُّدُورِ، كَما هِيا

فلقد عجز رجال الشرق والغرب في أوائل القرن الماضي، عن تحطيم

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٢٤ ـ ٢٦. والدمن هي آثار الناس وما سودوا من الأقذار.

قدرات المسلمين بالسلاح الحربي واللقاءات الميدانية، ورأوا أن الخلافة الإسلامية هي مركز القوّة والنشاط على ما فيها من تقلقل وتوزع، لأنها تحمل مشعل الجهاد المقدس، وتزوّده بوقود من القدرات المادية والمعنوية، وتدفع إليه جميع طاقات الأمّة من شبان وكهول وشيوخ، فتزلزل كل مؤامرة، وتردع كل عدوان. ولذلك توجهوا إلى زعزعة أركان تلك القيادة المخلصة، إذ وصفوها بالرجل المريض، واتمروا مع طواغيت المسلمين والعرب للإجهاز عليها من دون حرب وتوزُّع تَرِكتِها باسم التمدن والحضارة.

وهكذا تسربت صرخات التهديم والتشتيت والفرقة من الزوايا المختلفة، باسم النصح والتوجيه والتمدين، بعيدًا عن مظاهر الخصومة والصراع، حتى شبت منظمات إلحادية مستغربة في ديار الإسلام، تدعو إلى التمذهب بالنزعات الأوربية والتوزع السياسي القومي والوطني في دار الخلافة نفسها وسائر البلاد الإسلامية. وبذلك انتهى أمر الرجل المريض، ودخلت الأعداء بؤرة العالم الإسلامي فاتحة منتصرة بدون قتال أو نزاع.

فقد جاءت بصورة الصديق المنقذ والناصح الأمين، تمد يد العون والنصح والإعمار، وهي تضمر الحقد والغدر والانتقام، كما قال الأخطل(١):

يُبايِعُ، با لكَفِّ الَّتِي قَد عَرَفتَها   وفي نَفسِهِ نامُوسُهُ وغَوائلُهْ

هذا في معظم البلاد الآسيوية والإفريقية، أمّا في بعضها وفي المناطق الأوربية المسلمة، فقد كانت المجازر والمقامع تبيد الناقمين بعشرات الملايين، وتروض الشامسين. ومع ذلك فقد سُمِّيتْ دول الفرنجة بالصديقة، وانقادت إليها بعض نفوس المسلمين الخبثاء الطواغيت.

---

(١) شعر الأخطل ص ٢٤٩. والناموس هو الغش والخداع. والغوائل هي الأحقاد.

سياسة التجهيل:

هنالك استلم الغزاة زمام الأمور، بأيدي المبشرين والعسكريين والخبراء والمنافقين، فكان أول ما انصرفوا إليه ميدان التربية والتعليم. فقد رأوا أن ما كان يصدر في مركز الخلافة من إنتاج علمي في العقيدة والخلق والعمل مزودٌ بالأسلحة الرادعة لكل عدوان شرقي أو غربي، وقادرٌ على الدفاع والحماية ما دام في الحياة إنسان وشيطان، وأن واقع التعليم في سائر البقاع موزع هزيل متداع، لا طاقة له بالاستمرار والعطاء، فإذا بهم يخططون للأمة الإسلامية مستقبلًا تائهًا، يهدد بالضياع والاستسلام إلى الأبد.

لقد أشرف رجال التنصير والاستعمار وعملاؤهم المنافقون، على نظم التربية والتعليم في كل بلد مسلم: ففي دار الخلافة وما هو بظلها ربائبُهم من الاتحاديين، وفي الممالك المتشعبة والإمارات المتفرقة إدارات من الفرنجة، الفرنسيين والإنكليز والألمان والإيطاليين والإسبانيين والبرتغال... مزودين بكل سلاح من المعرفة والضغط والإكراه. والعجيب أن تنشأ الشيوعية الملحدة في تلك الآونة من التغلغل الاستعماري، لتكون عونًا له على ضرب الروح الإسلامية في الجناح الأوربي والشرق الآسيوي. وأخيرًا تسلمت الولايات المتحدة الأميركية زعامة تلك العصابات الغازية باسم الخير والبركة، وهي في الحقيقة جيوش القرصنة والإرهاب.

والحق أن رأس الحربة كان قد سبق ذلك كله، وشق طريقه من القاهرة أيام محمد علي وسلالته، للخروج من سلطان الخلافة وتكوين سلطنات إقطاعية مستبدة شعارها العبودية للغزاة والكفر والضلال والامّحاق. فقد بدأت دول الغرب تستقطب رجالات الفكر المصريين من الطائشين والماجنين، وتغريهم بالمراتب الدراسية والتعليمية، ليعودوا رسل إعداد وتهيئة وتنفيذ. ورافق ذلك تسلل مشبوه

باسم التنصير والحضارة، غزا بعض المناطق الإفريقية والآسيوية، يحمل راية السلام والتحضير والإعمار وألوان المغريات من أساليب العون والرفاهية والإعمار، ومن خلفه أساطيل البطش والجبروت ووسائل البغاء والفساد والتضليل.

ولأن ذلك الغزو العالمي لبث أمدًا من الزمن محدودًا أثره بطيء الحركة خفيَّ مظاهر التضليل والإفساد، فإنه استطاع مع الأيام أن يجد سبلَ التوسع والرسوخ في مستويات الحياة العامة، ومنافذَ إلى ما حوله من البلدان، لتتطلع النفوس المريضة من أغرار المسلمين إلى تلبّسه والانصهار فيه، وتجعل له قواعد في ديارها. ولا سيما بعد أن روّج عبيد الغرب له شعاراته المسمومة، وجعلوا غزو نابليون لمصر فاتحة عصر النهضة في تاريخ العرب، وسموا ما قبله بعصر الانحطاط.

ولقد كان للغزاة إرساليات متعددة متطاولة، زارت بلاد المسلمين قبل عدة قرون، تدرس طبائع الناس وخصائص الأرض والعقيدة والأخلاق والحياة، وترسم المخططات الإجرامية للغزو العدواني المقيت. ولما دخلت القوات السياسية والعسكرية هذه البقاع كان بين أيديها خطط واضحة، من العمل والتحرك والإحباط، بوسائل الإغراء والتضليل، وأدوات الفتك والإبادة والأساليب المنهجية لتخريب البلاد والعباد، أو دفعها نحو العبودية والاستسلام.

ولهذا بدأ المِعول بعماد الإنسانية، وهو ميدان التربية والتعليم، هذا الميدان الذي يصوغ العقيدة والخلق والضمائر والسلوك، ويهيئ الأجيال لبناء وسائل العيش وحماية الأمة والأوطان. فقد نُزعت العملية التربوية من أيدي الآباء والأمهات والمساجد والكتاتيب، وحُصرت في المدارس التي تستغرق كل أوقات الذكور والإناث، وتوجههم في الخط المنهجي المرسوم، فلا يتفلتون منه إلّا بعد مغادرة مرحلة الشباب والدخول في مراحل الكهولة والقصور عن الإبداع والنشاط.

لقد أُسس هذا المنهج على معلومات نظرية سطحية فارغة وتداريب شكلية خالية من العمل الإيجابي، بعيدة عن النشاطات الحيوية والإنتاج العلمي والحضاري، تنتهي بالأجيال إلى طريق مسدود من وجهتين:

أولاهما: البعد عن ميادين العمل في حقول الصناعة والزراعة والتجارة، لِما أُشبعوا به من نظريات فضفاضة خيالية، لا تعرف ممارسة الجهد الشخصي المبدع. وفي ذلك إخفاق أيُّما إخفاق للإنسان والأمة والبلاد، بخسارة الجهود وضياع الأعمار والقدرات!

والثانية: تزويد البطالة بجماهير غفيرة، تحمل الشهادات الدراسية الفارغة والشموخ بالأنوف، وروح العقوق للقيم والمبادئ السامية، وشعارات الفرْنَجة والميوعة والتخنث، ثم لا تجد مجالات للعمل الكريم، فتنجرف إلى متاهات التسكع والنقمة والخمول.

وإنك لترى في هذه الأيام ومنذ عشرات االسنوات الآلاف المؤلفة من حاملي الشهادات والتخصصات، يستكفون أيدي المسؤولين والسفارات، ليجدوا مورد عيش، يحفظ ماء الوجه، ويسد رمق النفوس، ولو ببيع الضمير وعبودية النفوس وتأليه الطواغيت السماسرة للقيم والشعوب.

وما أكثر ما يشيع الآن بين جماهير المسلمين، من إعراض عن التعليم وأصحابه، وتفضيل للمهن الحرة ورجالاتها، لِما تؤمّن لهم من عيش كريم! نعم هم يرونه كذلك، مع أن معظمه قائم على الغش والاحتكار والتهريب والرشوة، واختلاس أرزاق الناس وميزانيات البلاد، وترويج الدعارة والبغاء والقيادة.

لقد كانت المعلومات المدرسية والجامعية معَدّة، في مؤلفات المستشرقين من المبشرين وخبراء الاستعمار، فغُرست في عقول الأجيال مشبعة بالأوهام

والمغالطات والأكاذيب وموجَّهة في حدود ما رُسم للأمة من دمار، لتضلل النفوس والقلوب والسلوك والعمل. فكل ما يتناوله الطلاب والطالبات مستقى من المصادر الأوربية في العلوم النظرية والتطبيقية، وبعيد عن حقائق العلوم والتاريخ أسلوبًا ومنهجًا ومفردات ومعلومات. وإذا كان من المتعذر بيان ذلك في هذه الصفحات فلنرجئ بسطه إلى موعد قريب في موضوع قادم، إن شاء الله، ولنقف عند بؤرة البلاء والدمار، وهي محاربة تعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

فلقد عرف العدو مخاطر هذا الدين على مصالحه وإجرامه، وما يمد الأمة به من قدرات عظيمة، تشيد للبلاد والتاريخ علمًا وعملًا، وتغرس في النفوس العزة والسيادة والصلاح، وتبشر العالم كله بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة، وتزرع بذور الجهاد لكل معتد أو غاصب أو متسلط، وتهيئ النفوس للاستبسال والاستشهاد في سبيل العقيدة والوطن الإسلامي الكبير، وتضحي بكل غال وثمين للحفاظ على الكرامة والاستقلال والإيمان. عرف كل هذا بالتجربة والبحث والمتابعة القاصدة، فرأى أن يزيح منابع العقيدة والاعتزاز من طريقه في المناهج الدراسية، ويجعلها هامشية سطحية هلامية رجراجة، لا تسمن ولا تغني من جوع.

وبذلك وضع للدين الإسلامي في مناهج الدراسة ساعات خاصة محدودة، تقرَّر فيها المعلومات البدائية، من السيرة النبوية الشريفة والعبادات المبعدة عن طاقات الجهاد منفصلةً عما في الحياة من علم وعمل، بل مناقضةً لكثير من ذلك، لتحل التوجيهات الملحدة محل الإيمان، وتنطلق الأجيال في مسارب الجهل والضلال والعبودية لغير الله عز وجل.

حتى القرآنُ الكريم حُصرت طاقاته العظيمة في سويعات هامشية متفرقة، لترتل آياته مشبعة بالتجويد والتغني، ومحظورًا عليها بيان ما فيها من العقيدة والشريعة

والعبادات العميقة والأخلاق الإيجابية الفعالة في السعي الكريم والجهاد لكل مكيدة أو تهديد أو اعتداء. فقد فُرض، على كثير من البلاد الإسلامية، حصر تلك الساعات في تعلم الترتيل المجرد والحفظ، بعيدًا من التفسير والتوضيح والاستيعاب. ثم اختير لتلك السويعات آيات وعظية، خالية من روح الوعي والتفتح والاستبسال بعيدة عن التعرض للأعداء وبيان موقفهم من المسلمين.

وبذلك استتب الأمر للمستعمرين، وقام انفصال كبير بين الدين والحياة، فتوجه كثير من المثقفين إلى بهارج الأوربيين في السياسة والاقتصاد والمبادئ والخلق والتفكير وأساليب المعاملة والخصام والاحتكام، وتسرب إلى القلوب والأبصار متابعة الخطوط المرسومة من الانصهار في حب الكماليات ومتع الدنيا والتفاخر بمنجزات الأجنبي من مظاهر الأُبهة والترف والخمول.

ولم ينحصر هذا في المدارس العصرية وحدها، بل امتدت أصابعه إلى المدارس الشرعية أيضًا ومعاهد تحفيظ القرآن، يقلِّم ما فيها من روح إيجابية فعالة، ويقيد توجيهات العلوم الإسلامية، ويحصرها في حيز التلقي السطحي المجرد، لتنتهي إلى الفراغ والاضمحلال، وتخرّج دفعات من «رجال الدين» على غرار كهنوت أهل الكتاب، ليكونوا كالخطباء في المقابر والمآتم وسدنة للسلطان، لا يحسن أكثرهم غير العزلة والزجر والنقمة والتنفير والنفاق والهوان.

فلقد ضُمت تلك المعاهد والمدارس حتى جامعة الأزهر الشريف إلى الإدارة الحكومية، لتصبح مبرمجة مدبلجة بالروح الأجنبية المتهافتة. ولا ننسى ما أصدره المستشرقون من إنتاج في دراسة الشريعة والعقيدة وعلوم القرآن والإسلام، وصار المصدر الأول لكل بحث علمي جامعي، لا يجوز لأحد أن يغفله أو يتناسى اعتماد أحكامه ومسلماته ونتائجه.

وبهذا آل الأمر بالقرآن الكريم، أن حُصرت وظيفته في التزين والتبرك بآياته، تتصدر نسخُه المنازل والمكاتب والسيارات والمجالس والمنتديات، وتَسترزق بتلاوته جمهرة من المنتفعين بالتغني والتطريب وابتكار ألوان من التمايل والتشدق والانفعال. فهي ترتله في المساجد والمحافل والإذاعات والتلفزات، بصور من تعدد القراءات واللهجات والمدود والإمالات، بدون أن تترك صدى في النفوس، إلّا الطرب والتأوه والتواجد وصرخات الإعجاب.

بل لقد جُدّدت له وظيفة متميزة، تشبه ترتيل أهل الكتاب على الموتى. فقد أصبح لتقاليد الحِداد في صفوف المسلمين أن يكون ترتيل القرآن الكريم، يواصله جماعات من المرتزقة، ويتابعونه في المنازل وعلى القبور، لينقذوا الميت من العذاب والبلاء. ولهذا صار معلومًا في كثير من ديار المسلمين أن الآيات التي ترتل في منزل أو شارع أو محفل دليل على حادثة موت وذهاب حياة. هكذا آل الأمر بالكتاب الكريم الذي كان خطابًا للأحياء وبعثًا للإنسانية من الجمود والتحجر، أن صار رمز الموت والفناء.

وغير بعيد من هذا مصيرُ السيرة النبوية ومفاخر الصحابة الكرام. فهذه وتلك انتقلتا من مجالس العلم والعمل إلى محافل الطرب والغناء، تعطَّر بهما السهرات العامرة وحفلات الأعراس والحج والولادة والخِتان. ولذا أصبح لها سدنة منتفعون أيضًا، يغذونها بما يسحر الأسماع والألباب، ويسكر النفوس والعقول والحواس، ثم يعرضونها بأساليب من التغني والتواجد مشحونة بالخرافات الموضوعة والقصص الخيالية المصطنعة، لتزيد النفوس وجدًا على وجد وانطلاقًا في عالم الأوهام والضياع.

ولكي يحفظ العدو مسيرة التعليم في هذا الخط المرسوم، لزمت رجاله دوائر التوجيه والتخطيط والتنفيذ بمشاعدة المنافقين الخائنين، حتى أقروا الخطة المبتغاة، وزودوها بقوة النفاذ والاستمرار. فقد رسموا للمراحل التربوية والتعليمية صورة مشوهة عما في بلادهم في توزيع السنوات والمقررات والساعات، وتصنيف أنواع المعارف والعلوم والخبرات، وتصنيف الكتب التعليمية والمراجع العلمية، وتقسيم مراحل الدراسة والشهادات الممنوحة، وتوزيع الاختصاصات والمعلومات. بل لقد فرضوا أساليب الامتحان والاختبار والتخرج وإجراء المذاكرات وتقدير الدرجات وتسمية الشهادات الدانيات والعاليات.

ولكي يستمر هذا الخط المشؤوم أيضًا، استقدمت دول العدوان مئات المسلمين والنصارى من أغبياء العرب وغيرهم إلى معاهدها وجامعاتها، بالمنح المجانية والنفقات الباهظة من ميزانياتها، لترسخ فيهم مخططاتها، وتحمّلهم مُهمة الاستمرار في الانبهار والاستغراب. وقد عاد هؤلاء إلى بلادهم مبرمَجين مدبلَجين، يحملون راية العبودية لأسيادهم على غير وعي أو تقدير، ويتابعون تنفيذ ما رُسم لهذه الأمة المسكينة.

ولو تتبعت مسيرة التعليم في جميع بلاد الإسلام لرأيتها انعكاسًا مشوهًا لما حصل في ديار العدو. ولكنه جاء متأخرًا، يجتر تلك التجارب التي مجها أصحابها، وألقوها عنهم في سلة المهملات بعد استنفادها كل رجاء. فكل تعديل في مراحل التعليم وسنوات الدراسة، وأنواع المقررات والكتب المدرسية ومصادر التعلم وأساليب التدريس والبحث ونماذج الامتحانات وتوزيع الشهادات وحفلات التخرج، يجب أن يكون له نظير موءود في تجارب المستعمرين. وإلّا كان مرفوضًا متهمًا بالرجعية والإفلاس.

ومن المهازل التي طلع علينا بها زبانية التخريب والبلاء من أبنائنا المنافقين أن الأدب القصصي يجب أن يجاري في التعبير مستويات الأشخاص والبيئات التي يعرض لها بالتصوير أو التحليل أو الحوار. وذلك ليكون واقعيًا، يصور الأحداث والخطاب بصدق ودقة، يمثلان ما يُعرض بحيوية وأمانة فنية. وقد وجدت هذه المقولات في نفوس عشاق المذاهب الغربية والمتعبدين بما ترسمه وتنادي به مرتعًا خصبًا ومجالًا واسعًا، يتبنى المبادئ ويسعى لتنفيذها والتبشير بها في الإنتاج القصصي والمقالات الفنية والندوات والكتب والمحاضرات.

وهكذا صار لدينا سيول من الموضوعات التنظيرية والحكايات والأقاصيص والروايات، تزخر بالتعبير العامي الرخيص، استجابة لما تقتضيه الواقعية الحديثة. وفي هذا التعبير نماذج من اللهجات المغربية والمصرية والشامية والسعودية واليمنية... ثم كان تخصيص أكبر وأدق، إذ كان لكل قطر عدة أنماط محلية في التعبير. فالشام مثلًا فيه سورية ولبنان والأردنّ وفلسطين، وفي سورية وحدها عدد من المناطق المتمايزة في الخطاب. فلابد أن يتابع القصاص طوابع هذا التمايز، ليكون واقعيًّا في التعبير والتصوير والتحليل.

ومع الأيام انتقلت هذه التجارب الفنية إلى أدب الطفولة والمراهقة، فأصبح الزاد القصصي الذي يقبل عليه الأطفال والمراهقون أكثر إغراقًا في استخدام اللهجات المحلية، لأن هؤلاء المخاطَبين هم في المستوى اللغوي أدنى من الشباب والكهول والشيوخ. فلا مفر إذًا من أن يكون القصص المعدّ لهم في مستوى يناسب قدراتهم، ليخاطب بإبلاغ دقيق كامل، وينقل المقاصد والأبعاد الدلالية والنفسية والاجتماعية بصدق وأمانة.

وهذا يعني أن تلك الأجيال الصاعدة الواعدة تغذّى بما يخرّب الألسنة والتفكير والأداء، ويمسح الآثار الفصيحة التي تقدمها المراحل الدراسية من تقويم اللسان والفكر واليد، فتكرّس الانحرافات المحلية في التعبير، وتزيل الصلات الواشجة بين الأقطار العربية، لتبقى الحدود السياسية المفروضة علينا قائمة، تبشر بحدود أضيق ممثلة في تمايز مديني وقروي وحيوي...

وقد جابه هذه الأمواجَ من الدعوات الهدامة بعض النقاد بتفنيد ما تحمله من مغالطات وأوهام ودسائس صهيونية، وكان مما ذكر في هذا المجال أن الواقعية المزعومة تقتضي، لو أُعطيتْ حقها وبلغتْ مداها، أن تنال الشخصياتُ الأجنبية مكانتها من التعبير، حين يكون لها حضور في العمل القصصي. ومعنى هذا أن تؤدّى عباراتها وموضوعاتها باللغة الأجنبية واللهجة الخاصة بكل فرد على حدة.

وذلك يعني أن يكون النتاج القصصي خليطًا من اللُّغيّات واللهجات والأجنبيات، ليضم مثلًا في سورية نثارًا من الكردية والأرمنية والجركسية والفارسية والفرنسية والإنكليزية والروسية والألمانية... وإلّا فهو قاصر عن تمثيل الواقع الحقيقي المقصود. وهذا ما لا تجد له صوتًا في العالَم كله من الدعوات الفنية المختلفة أو منفذًا عمليًّا يحقق أبعاده ومضامينه.

ثم استعان النقاد في هذا الميدان أيضًا بالسلاح الأجنبي الذي يعتمده رجالات الواقعية مستشهدين بما كان في الآداب العالمية عند شكسبير وهيكو وأمثالهما، إذ تجد في المسرحيات والقصص والروايات التي تركوها عرضًا لشرائح مختلفة من المجتمع والجنسيات وموضوعات ملكية وشعبية وحوارات لمختلف الشخصيات في المشهد الواحد، كل ذلك بالأسلوب الأدبي الرفيع والعبارات الشعرية والنثرية

الأنيقة المصطفاة. ولم يكن هذا يغض من قيمة نتاجهم، بل كان وما زال رمز تجويد وتميز أدبي، خلد لهم الصنيع الفني العالمي.

وعندي أن هذا السلاح كان حقه أن يوجه إلى زبانية الدعاة، من الأجانب الذين روّجوا للمهزلة في ديارنا. فهم يعتزون بالآثار العالمية لأدبائهم، وهي في طابعها الفني الواحد المتجانس تردّ عليهم دعواتهم، وتُجهز على ما ادّعوه وزرعوه في النفوس العربية والإسلامية المبهورة بالأباطيل والترهات. إنهم يحتجون بما لدى بعض أدبائهم المعاصرين، والاحتجاجُ بأدبائهم الغابرين الخالدين يذهب بالأباطيل ويمحق الترهات، والحديد بالحديد يُفلح. ثم لا بأس أن يلقى هذا السلاح في الوجوه العربية المبهورة لأنها تقدس كل أجنبي، وتتعبد بما يستورد من تلك الصيحات المسعورة.

أمّا الاحتجاج العربي الخالص في مثل هذه الجدليات الفنية فهو ما في النصوص العربية من ثروة قصصية، تكون دليلًا لا خلاف فيه، كالقرآن الكريم والحديث الشريف وكلام العرب في شعر ونثر. فالأدباء العرب، أية كانت توجهاتهم في العقيدة والفكر، متفقون أن الآيات القرآنية هي قمة البلاغة العربية والبيان الأدبي.

وإذا استعرضت أنت ما جاء فيها من القصص رأيت تصوير كثير من المخلوقات الحية والصامتة كالملائكة والبشر والجن والحيوان والجماد، وما يكون لها من تفكير وتعبير وأداء. ومن الناس ترى وتشهد وتسمع من كان في أقدم العهود إلى ما يصيرون فيه يوم القيامة، بينهم آدم أبو البشر وحواء أمهم وقابيل وهابيل والأنبياء من مثل نوح وهود وصالح وإبراهيم ـ صلوات الله عليهم ـ والأمم الغابرة من أقوام تلك الأنبياء.

وفي هؤلاء وأولئك مستويات متعددة من العرب والأعاجم، كالنمروذ وفرعون

وهامان وقارون، والعرب العاربة والبابليين وبني إسرائيل والأقوام المختلفة في عهود النبوات والرسالات، ثم الملوك والوزراء والخدم والأعوان والحكماء والرعاع والمجرمين والمصلحين رجالًا ونساء وأطفالًا. بل إنك لتقرأ ما يكون من الحيوان والجماد...

وجميع هذه النماذج المختلفة جنسًا ونوعًا وصنفًا ومستوى وقدرة تؤدي ما تريد من المعاني ببيان فني واحد، هو النظم الرباني الكريم. ولا يتميز ذلك كله بخصائص تمثل شيئًا من مستويات الخلق والبيئة والعمل والأمة والثقافة والعلم والعرفان. حتى إن الهدهد والنملة ليكون منهما بلاغة سليمان وبيانه. بل إن الأرض والسماء لتجيبان الرحمن: « أتينا طائعين »، فيكون في التعبير ضمير العاقلين. وجهنّم أيضًا تستقبل أصحابها بلهفة، وهي تردد إجابة لسؤال الله عن كفايتها: هل من مزيد؟

ثم تجد أنت في الأحاديث الشريفة قِصصًا غفيرة عمن كان في قديم الأمم، من مجتمعات وقطاعات وشخصيات متباينة أيضًا، وكذلك الحال في القصص العربي التراثي، والخطابة الجاهلية والإسلامية، والمناظرات والمجالس السياسية والعلمية والفنية والفلسفية، ولست واجدًا في ذلك كله إلّا بيانًا عربيًّا عاليًا، وفصاحة يعربية خالصة.

ومع هذا، فقد كانت تلك النصوص الربانية والبشرية تنقل التجارب والتصوير والتحليل والتعبير، بالمستوى اللغوي الرفيع، على الرغم من اختلاف الأشخاص والشرائح الخَلقية والاجتماعية. وقد تلقت الأجيال العربية هاتيك النصوص، على اختلاف طبقاتها وأوضاعها، بوعي كامل ودقة متناهية وانفعال عميق ورضًا واطمئنان. ولم نسمع في بضعة عشر قرنًا أن واحدًا من العرب أو المستعربين كان له شكوى أو

اقتراح بالتعديل، مع أن فيهم العامي والسوقي والعالم والأديب في شعر أو نثر.

ثم هذه المسرحيات الشعرية التي قدمها أمثال أحمد شوقي من العصر الحديث، تعرض علينا قطاعات مختلفة من الحيوات البشرية والأحداث السياسية والاجتماعية والفردية، وشخصيات متباينة من الرجال والنساء والغلمان، عربًا وأعاجم ومستعربين، في حوار كثير جدًّا ومتنوع المضامين والمقاصد والظروف. ومجمل ذلك ينبع من مورد فني واحد، ومستوى أدائي موحد، ولا تجد ما يقتضي تلوين التعبير، ليكون صورة واقعية خرقاء، على ما يدعيه المستشرقون وربائبهم.

دع عنك ما يذكر من الحكايات والسرد الشعبي. فقد كانت هذه بقعة سوداء في تاريخ الكتابة، صنعتها تطلعات الشعوبيين ومن خلفهم، ثم انتهت إلى غير رجعة، وإن حاول بعض المعاصرين بعثها في عجز ويأس وقنوط. فقد ظهر منهم في المستويين الجامعي العلمي والإنتاج القصصي من يريد الانتصار لها، فأخفق أيَّما إخفاق، لأن لغة القرآن ترفض قبول الأجسام الوافدة، وتُزهق كل متطفل أو معاند أو محارب! ولَيُغلَبَنَّ مُـغالِبُ الغَلّابِ.

وفي الميادين الإنسانية والاجتماعية، زعمت لنا المعلومات الوافدة أن النساء كالرجال قدرة وكفاية ومعالجة للأمور المادية والمعنوية وممارسة للعلوم والـمهامّ واتخاذ القرار وتحمل المسؤولية، وأن هناك صراعًا بين الجنسين لابد أن يستمر في سبيله من مظاهر الحياة، حتى يأخذ كلٌّ حقه المزعوم من دون جور أو نقصان.

ولما أنشأناهن على ما زرعته تلك المزاعم، وخاطبناهن ندًّا لندّ ومنطقًا لمنطق وزميلًا لزميل، وحمّلناهن شطر ما نحمل من أعباء ومسؤوليات، ظلمناهن وأشقيناهن بمضاعفة المُهمّات والوظائف، وتخلخلت توجيهات الأسر والمؤسسات ودوائر

الأعمال، وانحرفت تربية الأجيال من ذكور وإناث، وأفسدنا ما تتطلبه الحياة من توزيع للوظائف وتعاون فيها مبني على التخصص والاقتدار، وصرنا إلى ما نحن فيه من الحيرة والتمزق والاضطراب.

نافذة الصلاح:

وبعد، فللخلاص من هذا الأخطبوط الرهيب المهدّم لمسيرة الثقافة والمعرفة والبيان وللنجاة والتفلت من أحابيله ومخططاته، يتوجب علينا أن نعيد النظر في واقع التعليم والنتاج الأدبي بجميع المراحل والمستويات، فنشذب السنوات المستطيلة من مراحل الدراسة، ونيسر للأجيال إتقان مهن مع سنوات التربية والتعليم، ونُقلع عن التمذهب بانحرافات الغزاة وصنائعهم. وذلك بإزاحة العقول المتأوربة عن مسرح التخطيط والتنفيذ والكتابة، وبرسم سبل إسلامية واضحة ووطنية خالصة من الوثنية لمسيرة المراحل الدراسية المختلفة والفنون الأدبية المتعددة وتزويدها بالعلوم والآداب والأساليب الإيجابية.

ومن ثَمّ نعيدُ للأسرة زمام التربية والتوجيه، وللقرآن الكريم وللسيرة النبوية والتراث العلمي والحضارة الإسلامية والوطنية مركز الصدارة في جميع العلوم والمعارف، وللقدرات الإنسانية حقها في ممارسة وظائف الحياة بحيث يصير كلٌّ ميسَّرًا لما خُلق له، ولا نأخذُ من نصائح العدو إلّا ما يناسب روح الإسلام الحنيف والوطنية المؤمنة الخالصة، ثم نصوغه بأساليب التألق التاريخي لأمتنا المجيدة. فحسبنا ما لقينا من مجاراة الغزاة، والشقيُّ من لا تعظه التجارب والأهوال.

* * *

ولا يزالون يقاتلونكم...

٢

في البحث العلمي*

الخلاف الدائم:

الخلاف بين الحق والباطل ظاهرة حيوية في سجلّ البشرية، تابعها التاريخ من عهد آدم عليه السلام إلى يومنا هذا. فكم لقي الرسل والأنبياء والمصلحون من عنت وشر بين الأمم المختلفة في الزمان والمكان! وكذلك كان شأن المسلمين يوم أعلنوا عبارة التوحيد في البيئة الجاهلية، إذ تألب عليهم المشركون وأهل الكتاب، يحاربونهم بشتى أنواع الاضطهاد والقتال. وقد سجل الله ـ تعالى ـ للعالَمَ كله خلاصة مواقف المعادين للإسلام، بخطاب خالد موجّه إلى المسلمين: ﴿ولا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُم، حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُم، إنِ استَطاعُوا﴾[٢].

وهذا بيان صريح واضح، بأن أكثر المتمذهبين بغير الدين الإسلامي حرب عليه دائمة، في كل مكان وزمان، وإن كان نص الآية الكريمة يخص المشركين واليهود والملحدين. ذلك لأن الدعوة الإسلامية، بأصالتها الربانية وشمولها للعقيدة والشريعة والعبادة والأخلاق وصلاحيتها لكل عصر وجيل، تهدد مصالح سماسرة القيم والشعوب، وتضع حدًّا لكل شرك أو كفر أو جهل أو عدوان.

---

* نشر بعض هذا الموضوع في العدد ١٤٩ من صحيفة المستقلة الصادرة في لندن عام ١٩٩٧ وكله في العددين ٨٦ و٨٩ من مجلة الثقافة الإسلامية الصادرة في دمشق.

(٢) الآية ٢١٧ من سورة البقرة.

وقد أخفق أعداء المسلمين في إزهاق روح الإيمان والصلاح لدينا، بالحروب القتالية المتطاولة خلال القرون الماضية، فوجهوا أنظارهم إلى الأسلحة المبطنة بالصداقة ومدّ يد العون بالحضارة والمدنية، بعد أن أجهزوا على الخلافة الإسلامية وتوزعوا بلاد الإسلام مستوطنات ومستعمرات ومستشاريات ومحميات. ولأن ديننا يعلّمنا مصانعة المنافقين، ويحضنا على مسالمة الناصحين المتقربين، انطلت علينا مزاعم هؤلاء، واطمأننّا إليهم بكل وداعة وصفاء.

وإذ ذاك انفرد رجال التنصير والاستعمار بأزمّة القيادة والحكم والتوجيه، فكان أول ما نثروه سياسة التجهيل بمناهج خيالية فضفاضة ومصادر مشوهة للحقائق وامتحانات نظرية قاصرة وشهادات رمزية فارغة وألقاب علمية خيالية. وقد أشرف رجالهم على ذلك بأنفسهم، حتى إذا استقرت الأمور على ما خططوا ونفذوا خلّفوا بعدهم مِن الطواغيت والمنافقين مَن تتلمذ لهم، وفُتِن ببهارج أضاليلهم، وأخذ عنهم أساليب الهدم والتشويه، ثم خرجوا من بعض البلاد، زاعمين أنهم منحونا شرف الاستقلال والحرية.

فعندما طرحَتِ الأمم المعادية للمسلمين سلاح الحرب القتالية، واصطنعت وسائل التآمر والتضليل، تطامن المسلمون لأعدائهم في الحرب السلمية، ونجحت أسلحة الاستنزاف العلمي في ميادين الخداع، وانتظمت المؤسسات التعليمية في مخطط التجهيل مؤذنة بضياع المسلمين ومن معهم من مواطني النصارى في متاهات العبودية للشهوات والأوهام. ولكن هذه الأمم الشرقية والغربية المعادية لم تكتف بهذا خشية أن تنقلب الصفحات، ويعود المسلمون ومن معهم إلى الصحوة، فلم تغادر أوطاننا قبل أن تتوجه إلى البحث العلمي نفسه، تشتت أبعاده، وتشرد أصوله، وتمسخ خطواته. وذلك في خطط مرحلية، تحقق مآرب التعمية والتخريب والانحدار.

النضج

لقد كان العرب قبل الإسلام قد بلغوا مرحلة من التضج العقلي، فصار لديهم فكر ناضج واستعداد لتقبّل الهداية ومناهج علمية ظاهرة، تستقطب الأدب واللغة وبعض معارف أحوال الأرض والحيوان والنبات والناس والجماعات والحروب والعهود والخلافات والجدال والحجاج والاستدلال وشيئًا عن الفلك والرياح والأمطار والصناعات والتجارة. وكان جمهور تلك المناهج ملكًا للشعراء والبلغاء والكهنة وسادة القبائل، يستغلونها بهيمنة التقليد والاستمرار على غير وضوح ودقة واستقرار.

نداء السماء والنبوة:

حتى إذا بُعث النبي ﷺ بالدعوة القرآنية، وخاطب العقول والأفئدة بالآيات والأحاديث، اهتزت نفوس العرب، وتطلعت إلى منطلقات وآفاق، تستوعب ضرورات الحياة وأشواق التحدي للواقع المرير. فقد أثارتها النصوص والتوجيهات الإسلامية، وبعثت فيها الرغبة في تدبر الكون والحياة وتوجيه النظر والتأمل والاختبار إلى الظواهر والبواطن، فراحت تبحث عن واقعها وجوانب حقائقها بالممارسة والتجربة واستنطاق الآثار والتاريخ والحاضر ومُدارسة أهل العلم والمعرفة.

وبهذا ألقى المسلمون العرب شعار التقليد والانغلاق، وفتحوا عيونهم على العالم بروح البحث والاستقصاء في شعار جديد، هو صوت السماء يبلّغ ويقرّر: ﴿هَل يَستَوِي الَّذِينَ يَعلَمُونَ والَّذِينَ لا يَعلَمُونَ﴾[1] ﴿وقُل: رَبِّ زِدْنِي عِلمًا﴾[2]، ﴿وما أُوتِيتُم

(١) الآية ٩ من سورة الزمر.

(٢) الآية ١١٤ من سورة طه.

مِنَ العِلمِ إلّا قَلِيلًا﴾[1]. إنه حض دائم وتحريض بليغ، يثير الهمم ويوقظ التطلعات. بل إنه ليتجاوز ذلك، فيَقرن الجهل بالكفر، ويصف المشركين والكافرين والمنافقين بأنهم قوم يجهلون أو لا يعلمون أو لا يفقهون، ثم يضع الجاهلية عَلَمًا على حقب الوثنية والجحود والضياع.

وقد أيدت ذلك نداءات وتوصيات من الرسول الكريم ﷺ، كقوله: «لَيسَ مِنّي إلّا عالِمٌ أو مُتَعَلِّمٌ»[2]، و«طَلَبُ العِلمِ فَرِيضةٌ عَلَى كُلِّ مُسلِمٍ»[3]، و«الحِكمَةُ ضالّةُ المُؤمِنِ، حَيثُما وَجَدَها فهُوَ أحَقُّ بِها»[4]، و«اطلُبُوا العِلمَ، ولَو بالصِّينِ»[5]. فكان عن ذلك أن اتسع مفهوم العلم وأساليبه ومقاصده، إذ صار واجبًا على المسلمين وحقًّا لهم، يطلبونه من المهد إلى اللحد ومن كل جهة أو ميدان، ويحاسَبون عليه في الدنيا والآخرة، لئلّا يخرجوا عن دائرة الصلاح، ويدخلوا في عداد الجاهلين.

إن العلم فيما استوعبه المؤمنون هو من جبروت الله في الكون، ولابد أن يتلمسوا مظاهره في الوجود، ويدركوا أبعاده فيما وَضع من القوانين والضوابط الربّانية، ليتحقق إيمانهم بالتوحيد والبعث، وتتضح لهم مقاصد العبادة والاستقامة والتشريع، وتتمثل إنسانيتهم التي كرّمها خالقها بالعقل والتدبر

---

(١) الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

(٢) الجامع الصغير ٢: ٢٣٤. والحديث في إسناده ضعف.

(٣) ذكر السيوطي أن هذا الحديث حسن، وقد وجد له خمسين طريقًا في الرواية. انظر الأحاديث: ٢٢٤ في سنن ابن ماجه و٣٩١٣ و٣٩١٤ في صحيح الجامع الصغير.

(٤) الحديث ٤١٦٩ في سنن ابن ماجه. انظر ضعيف ابن ماجه تحت الرقم ٩١٢.

(٥) الجامع الصغير ١: ٧٢. وهو ضعيف في إسناده.

والإرادة والخلافة والإعمار والطموح إلى تملك أزمّة الحياة الكريمة والحرية في اختيار سبل العمل والتفكير والسلوك.

فإذا بهم يفتّقون مسارب العلوم التي كانت لديهم، ويصححون مسيرتها وغاياتها، ثم ينشئون علومًا جديدة تناسب عصرهم وتتطلع إلى المستقبل، ويستمدون مما حولهم منابع العلوم الحية المعطاء، ليستوعبوا مادتها ومناهجها، ويضعوا لها منطلقات تواكب التفتح الإسلامي القويم.

تأسيس البحث والعرفان:

لقد علّمنا الدين الإسلامي مبادئ البحث وأصوله بوسائل مختلفة من التوجيه والحجاج. أمرنا أن ننظر في آفاق السماوات وما بها من أجرام وعوالم وأجواء، وفي جنبات الأرض وأغوار البحار وما بها من إنسان وحيوان ونبات وجماد، وفي أنفسنا التي نعايشها وما بها من أسرار ومعجزات ربانية خارقة، وفي صفحات التاريخ وآثاره الباقية وما تضمنه من تجارب وتفتح وانتكاس. وبذلك نكون ممن يفكر ويعقل، ولا نستسلم للخرافات والأوهام والترهات أو الظن العابر لِما يكون فيه من الإثم.

هذا هو المبدأ الأوّل لكل بحث علمي سديد. إنه ارتياد المجاهيل والمستغلِقات رغبة في المعرفة والاكتشاف، مع متابعة التأمل والتدبر والتحليل لاستثارة الظواهر والخفايا وتبيّن الحقائق والمعلومات. وبهذا أيضًا يتعرف الإنسان معالم الوجود، ويتلمس الطريق الواضح، فلا يمشي مكبًّا على وجهه، بل ينطلق واعيًا سويًّا على صراط مستقيم، ينتهي إلى ما هو قريب جدًّا من الحق والعمل الإيجابي للحياة الدنيا والنعيم الخالد.

ثم وضح لنا سبيل التحقق والاختبار في آثار متعددة من وقائع التاريخ. فإبراهيم

الخليل ـ عليه السلام ـ يناجي ربه، وهو يريد الاطمئنان إلى الإيمان، بتجربة تُثبت خلق الحياة في الأموات، وتجعل للبعث صورة عملية في الأبصار والأسماع والأذهان، فإذا هو يرى عِيانًا انتفاض أجزاء الطير المقطّعة الأوصال واستجابتها بالحركة الحيوية الكاملة للدعوة الربانية. وكذلك ما كان من المسيح ـ عليه السلام ـ حين كان أمام قومه سببًا لرد الحياة بعون الله ـ تعالى ـ في بعض من مات قبل.

وهؤلاء رجال الوثنية يُدعَون بقضّهم وقضيضهم، ليأتوا بسُوَر أو سُورة أو آية من مثل نصوص القرآن الكريم، فيعجزون عن ذلك على رغم المحاولات والتجارب والتآزر والتعاون والتصميم. ثم يتحداهم صوت السماء أن تخلق الآلهة المزعومة بمجموعها ذبابًا، أو تسترد ما يسلبه الذباب منها، فإذا هي تسقط في الامتحان. بل إنها لعاجزة أن تلبي النداء، وتستجيب لمطلب واحد، يثبت لها شيئًا من ألوهية.

إنها نماذج عملية حية، تميز الحق من الباطل: الحق الذي هو مستقر ثابت في الكون بالعقل والتجربة والامتحان، والباطل الذي لا أصل له في الوجود، يضمحل ويتلاشى عند اللمسة الأولى من التحدي أو التحسس والاختبار. وهكذا يضرب الله عز وجل للناس أمثال البحث والاستقصاء: ﴿بَل نَقذِفُ بالحَقِّ علَى الباطِلِ فيَدمَغُهُ، فإذا هُوَ زاهِقٌ﴾[1].

ويلي ذلك كلَّه الانعتاق من ربقة التقليد أو الانقياد للمزاعم التي لا يقام عليها دليل. ولذا تجد الصوت القرآني كثيرًا ما يخاطب المتعنّتين والمكابرين، ويستفزّهم بالمعارضة والتحدّي: ﴿قُلْ: هاتُوا بُرهانَكُم، إنْ كُنتُم صادِقِينَ﴾[2]. وعندما ادعى

---

(١) الآية ١٨ من سورة الأنبياء.

(٢) الآيتان: ١١١ من سورة البقرة و٦٤ من سورة النمل.

النمروذ الألوهية سأله الخليل ﷺ دليلًا على ذلك بإحضار الشمس من المغرب، فكان أن بُهت الذي كفر، وانكشف عُوّاره وخِزيه إلى الأبد.

ثم توالت ألوان الاستدلال الواقعية والعقلية، لتحقق معنى التوحيد والقدرة والبعث في استقراء لِما في الوجود من ظواهر البشر والحيوان والنبات والجماد وما كان من أحداث الخلق والأمم الماضية، واستنطاق لآثار الأقدمين وحقائق التاريخ ولألسنة أهل العلم والمعارف اليقينية... في عشرات ومئات من الأدلة الحقيقية القاطعة. وأيدت ذلك كلَّه قياسات متعددة الأشكال، على نماذج منتزعة من الحاضر أو الماضي البعيد مع ضرب الأمثال الحية المعبّرة، لتمييز الهدى من الضلال وإلزام الخصم بالحُجّة والبرهان.

وقد تعددت هذه الأساليب العلمية للبحث، وكثرت في الآيات الكريمة وآثار النبوة والصحابة الكرام، حتى ليتعذر على مثل هذه العجالة حصرها. وحسبُنا أن أجيال المسلمين تنبهوا إليها، واستقصوا توجهاتها وأصولها، وساروا على هديها في دراسة الظواهر المختلفة، فاستطاعوا تأصيل البحث العلمي المؤمن، ورسم مناهجه وأساليبه المناسبة لواقعه ومقاصده.

ومن ذلك ما وضعه العلماء العظام كالخليفتين عمر بن الخطاب والإمام علي - رضي الله عنهما - وأبي الأسود الدؤلي وابن عباس وأبي حنيفة والخليل ابن أحمد ومالك بن أنس والشافعي وابن حنبل، نضّر الله وجوههم وأكرم مثواهم. ثم كان ما أضافه علماء الأصلين ونقد الرجال وأصحاب التفسير وعلم الكلام وإخوان الصفاء ورجالات العلوم الإنسانية والخَلقية والتطبيقية والفلاسفة من إنجازات في البحث والاستنتاج.

وقد وصل بهم ذلك إلى توجيه المعارف نحو الإنتاج العملي، في ميادين اللغة والأدب والتاريخ والجغرافية والفلك والطب والجراحة والصيدلة والرياضيات والهندسة والفيزياء والكيمياء... حتى رأينا ما حفل به التاريخ الإسلامي من حضارة علمية وعملية، تألقت في عدة قرون، وسارت نحو النضج والتطور والازدهار، تخدم الإنسان والإيمان والكون والحياة، وتُعِدُّ الخلق لرضا الله عز وجل ونعيم الجنان.

تمركز وانشطار:

كذلك أسّس مجتمع الإسلام أصول البحث وسبله، ثم فرّعها بحسب الموضوعات المختلفة، واستغلّها أبناؤه بحزم وإخلاص ونشاط جيلًا بعد آخر لبناء إنسان ومجتمع وأمّة، تفاخر بها العصور والأوطان، وقد استمرت تلك الشعلة متوقدة، تزداد قوة وانتشارًا حتى في عهود الغزو المغولي والعصر العثماني.

بيد أن نقطة انعطاف ظهرت في هذه العهود الأخيرة المذكورة، قلصت مواطن النشاط، وحصرت أكثرها في مراكز السلطة والسيادة، فضعف حبل التواصل الكامل العطاء. لقد استقطبت عواصم الحكم رجال العلوم التطبيقية، فاندفعوا إليها للعطاء والتنمية، واجتمع نشاطهم في بؤرة مركزية، ترك لباقي الأصقاع رعاية ميادين العلوم النظرية.

وباستمرار القرون وتتابع الجهود، صارت البلاد الإسلامية البعيدة عن مقر الحكم قاصرة في غير العلوم الإنسانية محدودة التطلعات عاجزة عن متابعة ما يجدد لها النشاط والتفتح والازدهار أمام التحدّيات العدوانية. هذا على حين توالت النتائج القيّمة للأبحاث العملية في مواطن القادة، وقدمت للأمة ما حفظ لها الحيوية

والسيادة إزاء الكوارث والعدوان الصليبي المديد مدعّمًا بنصارى الفرنجة ومن معهم من الوثنيين واليهود، يمدونهم بكل عون وتأييد.

كانت الخلافة الإسلامية تريد الإشراف على العلوم التطبيقية، كي تُمدها بالعون والتوجيه والتنمية، ولكن هذه الإرادة الكريمة بدت مركزية بموارد الصيانة لروح الأمة، إذ تجمعت القوى المنشِّطة فيما يشبه رأس البلاد، وبقي سائر الجسد أقلّ قدرة على الحركة القويمة النامية، يستمد العون من ذلك المركز البعيد. وفي هذا انشطار ظاهر، يهيئ للعدو فرص الانقضاض والتجزئة والابتلاع.

ذلك لأن الحروب الصليبية استمرت بالتهجم على بلاد الإسلام، وما تزال إلى الآن بألوان مختلفة، رغم ادعاء انتهائها. وقد شَغلت بحصارها المطبق وهجماتها المتوالية أجدادنا، عن كثير من متابعة التطور للبحث العلمي، والإنجازات المناسبة للواقع المتجدد، فلبثت تحركاتهم بطيئة التقدم، تلبي الحاجات الضرورية، لتزويد الأمة بالقدرة على الحماية والسيادة والبقاء.

وهذا ما شجع تلك الحروب أن تضع لها قناعًا جديدًا، يعتمد الخداع والتضليل باسم الصداقة الوادعة والإنقاذ. ولذا رأيناها تضع أسلحة القتال، وتتقمص شخصية الناصح الأمين. فقد آن للعدو أن يستغل ذلك الانشطار العلمي لتمزيق أوصال الأمة، والقضاء على وحدتها المتمثلة في «الرجل المريض» كما كانوا يزعمون.

حقًّا إنها فرصة سانحة، تحقق مكاسب حروب شغلت العالم عدة قرون، وتجعل الأمة الإسلامية مزقًا وأشلاء، تنقاد صاغرة مطواعًا بعد أن استعصى مراسها، ولم تُسلم أزمّتها بالقتال والحصار. وإذ ذاك بدأت حياكة الفُرقة الداخلية، وكانت النزعة القومية أمضى سلاح لأنها تثير الأحقاد، وتنزع عقائد العباد، وتشتّت توجهات البلاد.

وهكـذا اندفعـت إلى بـؤرة الخلافـة زمرة تأتّـم بالغرب، وتنسـاق فـي متاهاته الفكريـة والدينيـة والخلقيـة. فهي بتسـلمها زمـام الحكم تحـت راية الخُلفـاء تقود الأمة إلى الانصياع، وتثير النعرات القومية في الجسـد الإسـلامي، فيتسـنى انفصال الجنسـيات المختلفـة بعضها عن بعـض، وتصبح قوى متضعضعـة متناحرة. وذلك منطلـق المجال، ومنتهـى الآمال.

فعندما تملك الاتحاديون زمام السلطة في موطن الرأس بحماية العدو، وحاولوا أن يصبغوا البقاع كلها بألوان الطورانية المتعصبة، حانت الفرصة لتهييج قوميات متعددة الجنسيات كان الإسلام قد وأدها وقضى عليهات، فهبت صرخات مماثلة للطورانية في أرجاء الوطن الإسلامي، تنادي بالنقمة والثورة، وتحارب بأسلحة الفرنجة وقيادتهم أيضًا لتحقيق الانفصال. إنها عاجزة عن الحركة والوقوف، فلا غرو أن يوجهها العدو، ويزودها بالرأي والمال والسلاح ليضرب بعضها ببعض، فتكون كبش الفداء، ولبنات البناء لمذبحها المنشود، ويظهر هو في ثياب المنقذ الأمين.

ومن ثَمّ كانت انشطارات متوالية، بدأت بالانقسام القومي، ثم سادت التوزعات الخبيثة: الوطنية فالإقليمية فالقبلية فالمحلية. وإذا بالوحدة جمهوريات وممالك وسلطنات وإمارات وولايات ومستاريات ومحميّات، فقيرة مهلهلة قاصرة أن تحمل مسؤولية الاستقلال. لقد تحقق الحلم، وصارت كل بلاد المسلمين في قبضة الرأسمالية الكافرة وما جدَّ من حركات شيوعية ملحدة وقيادات ماسونية. والزعاماتُ العربية وغيرُها في ديار الإسلام منصاعة للمعاهدات الغربية أو التسلط الشيوعي ومزودة بالأموال والسلاح والعقول الأجنبية، تنفذ مكاسب النصر الجديد للعدو الصليبي، ويخاصم بعضها بعضًا للتقرب إليه بالانقياد.

وهذا هو الفاتح الفرنسي الجنرال غورو يقف، أمام قبر صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ يتحدّاه بنشوة الظفر، ويطلب منه أن يهب من مرقده، ليشهد نهاية الحروب الصليبية، ثم نرى الفاتح المزهو نفسه، يتسلم قيادة جزء من بلادنا، ينفذ فيه ما رسمه الاستعمار من خطط تخريبية هدامة على غرار ما يجري في سائر الأشلاء المتمايزة.

وهكذا اندفعت ثورة الأقطار الإسلامية بشعارات عدوِّها وأسلحته نحو التقاتل والانتحار، وهي تظن أنها تريد العزة والاستقلال. وقد عبر عن ذلك أحد المَهجريِّين ساخرًا حين ذكر أن الثوار الأغبياء المنتحرين انطلقوا نحو باب مضرّج بالدماء، يرددون قول أحمد شوقي:

وَلِلحُرِّيَّةِ الحَمراءِ بابٌ، بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

حتى إذا وصلوا إليه طرقوه بقرونهم وأيديهم الدامية واقتحموه، فإذا هم في المسلخ، يقدّمون رقابهم للذابحين.

على أن الجنرال غورو أخطأ، فيما ادّعاه، مرتين:

أولاهما: أن الحروب الصليبية لم تضع أوزارها بانتصار دول الاستعمار، وإنما ألقت الأسلحة الحديدية، وتلبست أقنعة الوصاية والصداقة والتمدين محاولة تضليل المسلمين واستنزاف قدراتهم المادية والمعنوية وسحق ما فيهم من بقايا الدين الحنيف. وإذا كان بعضنا قد انطلت عليهم المكايد والحيل أو سوّغها لحاجات في نفسه فإن الكثيرين من العرب وغيرهم أدركوا الحقيقة، وانطلقوا في ثورات ومعارك حربية وفكرية متميزة، وهم يستعدون للقاءات ولقاءات.

وثانيتهما: أن ذاك الانتصار نهاية جولة، والأيام يداولها الله ـ سبحانه وتعالى ـ بين الناس، ولا بد من جولات وجولات حتى يستقر الحق، ويزهق الباطل بكل

ألوانه، وما ذلك على الله بعزيز. فمن المحال أن تنتهي الحرب بين أنصار الله وأنصار الضلال لأنها أبدية خالدة، كما أعلمنا العلي القدير: ﴿ولا يَزالُونَ يُقاتِلُونكُم، حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُم، إنِ استَطاعُوا﴾.

تضليل البحث العلمي

ومهما يكن من أمر فإن رجالات الاستعمار والصهيونية والشيوعية دخلت ديار الإسلام، فاتحة منتصرة وحاكمة باسم التسلط والوصاية والتمدن والحضارة وبحق المعاهدات المكشوفة والسرية بينها وبين طواغيت المتمسلمين، لتستعمر البلاد والعباد، وتنفذ الخطط التي رسمت من قرون. فقد رأت جسم الوطن الإسلامي هزيلًا، خاويًا من مقومات العلم والعمل ا، مهيًّأً لكل كيد وائتمار.

أمّا رأسه المدبر المفكر القهار فقد سحقه رجال الطورانية، وتعهدوا بتذليله وتسييره في ركاب الغرب، دينًا وخلقًا وعلمًا وعملًا لأنه بلد هُزم في الحرب، وهو محكوم عليه بما يستحقه المهزوم، من تبعية مطلقة للدول المنتصرة وتحكم في شؤونه ومصيره. ولما كانت هذه الدول قد رسّخت الدعائم لاستقرار الحكم الطوراني في البلد المغلوب فقد أخلص أصحابه لها، ولم يبق للعدو حاجة إلى الانشغال بأمره، ما دامت الخطة بأيد خائنة أمينة، تشربت المبادئ برمتها، وتقمصت الاستغراب المطلق وتهويد فلسطين والبعد عن تعاليم الإسلام بتعهد ووضوح وتصميم.

ومِن ثَمّ ترى تلك الأيدي المستخزية حتى الآن، بعد مشاركتها في الحرب العالمية الثانية وصيرورتها من الظافرين المنتصرين مع الأحلاف، تعرقل مسيرة البحث والإنتاج في عقود متوالية حتى يومنا هذا، لتبقيها في دائرة الاستهلاك اليومي، وتربطها بعجلة الخصم وتفرغ محتواها الأصيل باسم التمدين والمعاصرة، فتحطم

ما كان من فعالية في حلبة الصراع. وبذلك برهنت لأسيادها الأجانب أنها تابعة مطواع حريصة على التزام ما رُسم لها من مصير محدود.

أمّا سائر العالم الإسلامي، وهو ملحق بالهزيمة الحربية أيضًا أو مشارك في الحرب أيضًا منتصر، فهو مقهورٌ أو مستبَدّ به لدخول القوات الاستعمارية إليه بالسلاح والقوة. لقد مُزّقت البلاد فئات متناحرة تحت حكم من الأوربيين مباشر بالحديد والنار أو غير مباشر بِعِمامات وعقالات وسيدارات وتيجان خيانية مدبلَجة مبرمَجة تتابع كل أجنبي، لا حول لها ولا قوة ولا استقلال.

وكذلك صار شأن هذه المستعمرات في الحياة العامة. فهي مرغمة أن تعيش مع الصناعات الاستهلاكية، ومفروض عليها ملاحقة الصادرات الأجنبية ونفايات البالات المستهلكة، ومحظور عليها إنتاج الصناعات الحضارية العليا والمعدّات الحربية ترهب عدوَّ الله، أو ما يضمن لها التحرر والسيادة والاستقلال والحماية من سلطان المعتدين.

ولهذا بقي البحث العلمي مفقودًا كما ذكرنا بلا هيكل ولا حياة. وإذ ذاك تسنَّى لرجال دين اليهودية والنصرانية والمستشارين والعسكريين أن يضعوا في العالم الإسلامي كله ما أعدّوه من تضليل وتخريب. فقد استوردوا له المستشرقين، وأكثرهم صليبي أو صهيوني أو شيوعي أو ماسوني، مع مصنفاتهم المشبوهة ورؤوسهم المفعمة بالحقد والكبرياء، ليصطنعوا أوهام بحث علمي متهافت في المدارس والمعاهد والجامعات. ولا عجب أن استطاع هؤلاء، لِما وجدوه من خيانات وفراغ واستسلام وما أُوتوه من حنكة وبراعة وعداء، إشعارَ المسلمين ومن معهم من نصارى مواطنين بالعجز الحضاري والقصور العلمي وتوجيهَهم إلى المناهج التي رسموها لمسيرة العلوم.

وكان عن ذلك أيضًا أن أغروا الناشئة بالمال وبهارج المتع والآمال، ليلتحقوا بالمعاهد والجامعات الأوربية، تصنعهم على أعينها، وتحمّلهم إكسير الضعف والانحلال في جميع العلوم النظرية والتطبيقية. حتى الدراسات العربية والإسلامية صارت حِكرًا على المستشرقين، يمنحون فيها شهادات عالية كثيرًا من وافدي الأمة الإسلامية، ويرسلونهم دعاة إلى ما زرعوا في عقولهم من تُرّهات، ووفي منهجيتهم من اختلال وخلقهم من انحراف، مع زوجات متحضرات يواصلن رسم الخطوات والإنجازات.

والاختيار لهؤلاء الموفدين يفضَّل أن يكون ممن لم يتقن أصول العلوم الإسلامية والوطنية ـ أعني الذين لم يطلعوا على التراث، ولم يصقلهم نضج السنين والوعي الرصين ـ ليكونوا مادة مطواعًا لكل توجيه وبؤرة متعطشة لكل شراب. فهم يحملون مسؤولية الهدم بكل قوة ونشاط لأنهم يظنون أنفسهم ويظنهم مواطنوهم رسل حضارة وأبطال تحرير. أما إذا كان الموفدون على علم وبصيرة بحقائق الإسلام والتراث والتاريخ فإنهم سيردّون الزيف، ويرجعون بالعلم المفيد، فيكونون صوت علم وجهاد ونُصرة للمسلمين.

كان هؤلاء الموفدون القاصرون غالبًا ما يعودون إلى البلاد بشهادات مهلهلة، بعض موضوعاتها يُكتب لهم ويترجم إلى اللغات الأوربية عن طريق مكاتب متخصصة وأقلام مأجورة، منها ما يزوّر الشهادات تحت بصر الحكومات والمؤسسات العلمية هناك. وبهذه الأطروحات المشتراة أو الوثائق المزوّرة، يحمل العائدون شهادات عالية، تخولهم قيادة الأمة وصناعة تاريخ الانحطاط الذي بدأ به محمد علي باشا بلا فخر.

أما مضمون هذه الأطروحات فهو، مع ما تختلف فيه الدول والجامعات المستضيفة من مستويات وأساليب، يجب أن يكون هزيلًا متهافتًا، يجترّ فُتات المعلومات المستهلكة، بأصول مهلهلة متداعية ومنهج مضطرب مأفون وتعبير أعجمي مدبلج. ثم لابد أن يُحصر فيما لا يكون منه أثر إيجاب في الواقع العلمي للأمة الموفِدة. فليس لهذه الموضوعات أن تخرج على المخطط الاستعماري البغيض الذي وضعته نفوس حاقدة مثؤورة، وأشرفت على تنفيذه مؤسسات مستبدة، توجّه الدارسين إلى مهاوي التهافت، ولا تسمح بما يمكّنهم من المعارف الحقة والمنهج العلمي السديد والإنتاج العملي الحق.

حسب هذا الوافد المسكين شتات من المعلومات واعوجاج في النفس والقيم ونقمة على الوطن وما فيه، ليرجع بقدرات واهية وأدوات متعثرة. ثم هو ينقل ذلك إلى الناشئة في المعاهد والجامعات، بأساليب عامية ملتوية ونشرات موزعة التفكير مفككة التعبير مشوبة بالغموض والإبهام والمعاظلة والاضطراب. وإذا أضفت إلى هذا ما يكون من نقص في حصائل الطلاب عن حصائل المدرسين، عرفت: كم هي مفجوعة هذه الأوطان المسكينة؟

وقد عرف أكثر الموفدين حقيقة بضاعتهم المُزجاة، فكانوا يُخفون إنتاجهم الأجنبي في مطاوي الغيب، ويأبون أن يترجموه إلى اللغات الوطنية ألّا القليل النادر باضطرار، لئلّا يتكشف عوارهم، ويظهر ما لديهم من معالم الضعف والتشتت والضياع. وما هذه بدعوى تحتاج إلى دليل. وإلّا فأين تلك البحوث التي أفنت زهرة شبابنا، وأراقت ماء وجوهنا إزاء غطرسة العدو ورجالاته المستشرقين؟

كفى بك دليلًا أن تقف على الأطروحات مما تُرجم في ميدان الدراسات العربية والإسلامية، لتجد البرهان القاطع المبين! فقد كان أصحابها يجمعون فيها

مـن المعلومـات ما هو مسـتهلك مبتـذل في أبسـط المراجع، فيدعي المشـرفون أنه إبـداع وفتـح جديد، ويباركـون حامليه بالتهنئـة والامتياز في الدرجـات، ثم يدفعون بهم إلـى قمم القيـادات والتوجيه في وطننـا المنكوب.

علـى أن هـؤلاء الموفديـن العائديـن أدرى بمـا فـي جعبتهـم مـن التهافـت والاضمحـلال. فهـم يضنون بـه على الترجمة، ويخفونـه عن أعين العربيـة وغيرها من لغـات الأوطـان تحت سـتار من التحفـظ والتكتم والانشـغال. حتـى إذا حُمل بعضهم علـى ترجمـة مـا رجعـوا به، وهـم مـن القلة بحيـث لا يذكـرون، رأيـت فـي تضاعيفه الهلهلـة فـي المنهـج، والأوهـام فـي المعلومـات، والتفـكك فـي التعبيـر، والقصـور فـي التحليـل والاسـتنتاج، والبعـد عن واقـع الأمة ومـا تصبو إليه مـن العـون والوفاء. فلقـد رغـب أحدهم إلـيّ أن أصحح له شـيئًا مـن ذلك، ولمّـا قرأت بعـض الصفحات اعتـذرت بإصـرار، فترجمهـا كلهـا لـه أحـد أصدقائه. رحمـه الله وعفـا عنه.

وكذلك شأن أطروحات الدراسات العملية والتطبيقية. فهي خفية أيضًا، قل أن ينشر منها صفحات مترجمة في ديار الإسلام كتابًا يكون بين أيدي الجميع. وعندما يترجم بعضها، كما جرى في بعض البلاد الإسلامية لأسباب إدارية يقتضيها التعيين في وظائف تدريسية أو فنية، تجد أعاجيب الضعف والسطحية والفراغ.

إنهـم يُبعَـدون فـي بـلاد العـدو عـن متابعـة البحـوث الأصيلـة الجـادة وعـن المخابـر السـرية والمستشـفيات المتخصصـة ومراكز التجـارب العميقـة التأصيل، وعـن ميادين العلـوم التِّقنيـة العليـا التي تتعلـق بالأمن الدولـي المزعـوم، وتحفظ سـيادة الأمـة. إنهـم يُصرَفون عن ذلـك كله، ليُشـغلوا بموضوعات هامشـية مبتذلة، لا تسـمن ولا تغنـي مـن جوع.

وهذا الأمر سواء فيه من كان مسلمًا أو من النصارى وغيرهم المقيمين في بلاد الإسلام. فقد حُكم على من اختلط منهم بنا كما حُكم علينا، خشية أن يتفتح وينقل إلى الوطن بعض ما عنده. فهو عنصر مشبوه، لا يؤمن جانبه لدى رجالات العدو. إنهم قد يميزونه بإكرام في ميادين التجارة والصناعة والمال، ولكنهم يضنون عليه بأسس البحث العلمي، ليتحمل معنا مسؤولية جوارنا والاختلاط بنا. وما أكثر ما أُخذ الجار بحكم الجار! أمّا اليهود فلهم منزلة رفيعة لأنهم عونٌ للصليبية والماسونية والشيوعية وأجيالٌ معَدّة للصهيونية المنتظرة في قلب البلاد الإسلامية.

وإذا تيسر لأحدنا اقتحام الحدود المرسومة والمتاريس المصطنعة، ليشهد بعض ملامح خفاء البحوث العلمية هناك، فإن من المحال عليه أن يدخل مراكز التحكم والصيانة لمنجزات العلوم التِّقنية العالية. وهذا كله بخلاف ما يهيأ لأبناء العدو واليهود من برامج منظمة ومراحل علمية وعملية فائقة ومكافآت تشجيعية ضخمة.

ثم إن البحث العلمي لدى موفدينا شِبه مفقود لأن قوام أعمالهم جمع لشتات المعلومات، دون أصول منهجية أو دقة في التحليل والتركيب والاستدلال، مع هزيل النتائج وسطحية التناول وضيق الأفق والمجال واضطراب خطوات التفكير. هذا إذا كانوا هم الذين سطّروا ما في أطروحاتهم، واستوعبوا محتوياتها بأصالة وإخلاص.

ودع عنك هنا أساليب التعبير، ولا تَشغل نفسك بالسؤال عنها أبدًا. فالأداءُ لأقلام خرجت من أرض العروبة وديار الإسلام هي عندنا غضةٌ هشة لم تستكمل القدرة والصفاء في التفكير والأداء، فإذا هي هناك قد نسيت لغات الأوطان، لِما غُمرت به من مطالعات وجلسات أجنبية. والعقولُ والألسنة اعوجت برَطانات

العامية والعُجمة، فصار ما تؤديه نماذج من التغرب الهزيل، بألوان من الركة والابتذال والتقطع، وخليط من الالتواء والغموض والإحالة.

فلو قدّر لك أن تطّلع على ما اطّلعنا من ذلك وعلى ما ألفه المستشرقون من دراسات إسلامية أو عربية أو أجنبية، لتقارن بينهما لأخذك العجب العجاب مما بين الصنفين من اتفاق وافتراق:

أما الاتفاق ففي المقولات المشحونة بالسخط والمغالطات واقتناص الأدلة وليّ النصوص للوصول إلى أحكام مفعمة، بالهمز واللمز والطعن والتشويه للقيم والتاريخ والتراث والحاضر والمستقبل في بلاد الإسلام.

وأما الافتراق ففي أصول البحث والكتابة ومستوى التفكير والأداء وأساليب البيان والاحتجاج، إذ ترى ما ذكرناه في الأول، مقابل الدقة والوضوح والإتقان في الثاني.

وليس من العسير وضع اليد على سر هذه المفارقات. فسبب الاتفاق ما تشرّبه الطلاب من معلومات وأحكام ومقولات، وهم حريصون على أدائها لنيل القبول والنجاح. ثم هم جاهلون بأصول البحث والكتابة بخلاف الأساتذة العلماء الأعلام الذين يهمهم غرس المفاهيم الاستعمارية وتقريبها إلى النفوس. فلا بد أن يصطنعوا ظاهر الدقة والموضوعية والنصفة لئلّا يكون الصدى منفرًا للمسلمين ومن معهم من المواطنين.

ومع ذلك فإن هؤلاء الخِرِّيجين، إلّا من رحم ربك، يشمخون بأنوفهم إزاء أبناء الوطن، ويرون البحث الوطني الأصيل هراء، يستحق أصحابه كل ازدراء. ولا عجب بعد هذا أن يكون موقف المسؤولين عن البحث العلمي في ديار المسلمين

كذلك، يمنحون العائدين امتيازات بالمناصب العالية والرواتب والتعويضات الباهظة والفائض من التقدير والاحترام. فأكثرهم ربائب «مستقبل الثقافة في مصر»[1] ومخلصون في تحقيقه وتشجيع سدنته وزبانيته، ليكون للوطن الإسلامي وجه تقدمي مشرق لألاء.

وما زالت قوافل الموفدين تتوالى متدافعة بالمئات والألوف لتواصل مسيرة الوهن في أصول البحث، بتسلمها زمام المعاهد والجامعات والمؤسسات الفكرية وقيادة مسيرة التعليم والثقافة والتوجيه وشؤون الإنتاج العلمي. فلا غرو أن تبقى عقول المفكرين في ركاب الهيمنة الاستشراقية، تجتر مستهلك المعلومات، وتصطنع موءود المناهج، وتعجز عن النهوض بالأمة من العثار.

والحقّ أن أخطر ما زرعوه في ميدان البحث العلمي هو النزعة العِلمانية الوثنية المبطَّنة. أعني التفرقة الدائمة بين العقيدة والفكر، وإقامة فاصل حاد بين حقائق الدين وتوجهات العلوم. فقد ظهر لتلك النزعة أثر إيجابي في مسيرة البحث العلمي الأوربي حين استطاع أصحابه تحرير نشاطهم من هيمنة رجال الدين هناك واكتشاف عوالم جديدة حققت لبلادهم النهضة الحضارية المعاصرة.

ومن ثَمّ انتقل هذا إلى ديارنا بأنفاس المستشرقين والمتسلطين والمتأوربين، فوضعوا لنا أصول البحث والكتب التعليمية والتربوية في إطار، يستبعد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأسسوا الدراسات والأبحاث على التفكير المادي الخالص والمناهج العلمانية التي تقيم صراعًا دائمًا، بين تعاليم الإسلام ونتائج العلوم. ولذلك سمِّيت الفيزياء علم الطبيعة، ودراسات النبات

---

(١) كتاب ألفه طه حسين للتبشير بما يجب أن تصير عليه البلاد الشرقية من تبعية للغرب وعبودية له.

والحيوان والجماد علومًا طبيعية، وصار البحث في هذا كله بعيدًا عن الخَلق والتكوين الربّانيّين، يروّج لأباطيل العِلمانيين.

ولذلك أيضًا، ترى الحياة الإنسانية في الدراسات التعليمية تفسرها نظرية داروين ومشتقاتها، التي عفّى عليها الزمن وكشف النقد العلمي بطلانها في بلاد المستعمرين من غرب وشرق، وهجرها علماؤهم المشرفون علينا أيضًا. لقد أنكروها في بلادهم وعلومهم، وهي ما تزال في ديارنا بؤرة التفكير التاريخي للحياة، عنها تصدر النظريات الحيوية، وبها تفسر مظاهر الاجتماع والتمدن والحضارة، وتنطلق خطوات البحث العلمي. أما قدرة الله عز وجل في خلقه أجناسَ الأحياء والجماد، كلًّا منها متميزًا بشخصيته وصفاته وإمكاناته، فهذه مما لا يدخل حيز البحث أو التأمل أو القبول.

وعليه فإن الإنسان كان وحشًا، تنقّل في مراحل الوحشية ملايين السنوات، حتى استأنس واخترع لجسده ونفسه ما يحقق حاجاته فدخل محراب الإنسانية في مراحل من العصر الحجري، وما بعده من تصورات مفترضة. لقد تجاهلوا ما يؤمنون به، من أن آدم عليه السلام ظهر في الأرض كامل الإنسانية والقدرات، يحمل روح النبوة والرسالة، ليوجه أهله وسلالته نحو الحق والصلاح. وتجاهلوا أيضًا أن المجتمعات البشرية مرت بنكسات وارتكاسات لِما أصابها الله به من عقوبات وكوارث، ذهبت بكثير من المعارف والعلوم والحضارات، لتبدأ حركات جديدة نامية نحو الصلاح والرشاد.

إن التاريخ الحق للإنسانية والحضارة متعرج المسيرة، خطُّه البياني ذو قمم وقيعان وانعطافات كثيرة جدًّا، تمثل مشارق النبوات ونكسات العقوبات الربانية التي أزالت معالم البغي لتجديد الحياة الصالحة في هذا الوجود. كذلك نفهم تطور

المجتمعات، وكذلك يجب أن ينهج البحث العلمي المؤمن، ليفهم تاريخ البشرية وأهمية رسالات السماء في الصلاح والخير والنماء.

ومما زرعوه في صفوفنا من المفاهيم الاجتماعية البالية أن أفضل التدين يكون في القرى والبادية بعيدًا عن المدن والحواضر. وهذا يعني أن السذاجة في فهم العقيدة والشريعة والعبادات والخلق هي الصواب في الدين. أما العلم الواضح الدقيق الواعي الذي يمكن أن تهيئه مجالس البحث والفقه والتوجيه في المدينة فهو في رأي مَن تتلمذ عليهم مشوّه فاسد لا خير فيه. إنهم يريدون الغرس في النفوس أن الأديان السماوية خرافات وأضاليل، يتقنها سكان القرى والبادية بسذاجتهم وسطحيتهم، ويضعف فيها رجال العلم والعرفان.

وبذلك يتسنّى لهم تعميمُ الجهل بحقائق الدين والنقمةُ على تعاليمه أصولًا وفروعًا والبعدُ عن توجيهاته ومقاصده، ليخلو لهم الميدان بدس ما يريدون من البغي والتضليل. أما نحن ـ الأمة المسلمة ـ فقد غرس في نفوسنا ديننا الحنيف أن المؤمن يزداد بالعلم إيمانُه وصلاحه وأن الجهل من صفات الكفر والإلحاد، وأن الأعراب ﴿أَشَدُّ كُفرًا ونِفاقًا، وأجدَرُ ألّا يَعلَمُوا حُدُودَ ما أنزَلَ اللهُ﴾(١) فما أعظم الخلاف بين توجهات العلمانية واليقين!

المستوى النهائي المحدود

ذاك ما زُرع في كثير من عقول الموفدين إلى ديار أوربة وإنكلترة وأمريكة وروسية، ومن الأقلام والألسنة والأفهام المفتونة بالشرق والغرب. أما أصول البحث التي أُسست، على المنهاج القرآني والتوجيه النبوي وجهود الفقهاء

(١) الآية ٩٧ من سورة التوبة.

والعلماء والفلاسفة المسلمين فقد استبعدتها قيادةُ الطوارنيين في بلادهم والغالبيةُ العظمى من القيادات في الوطن الإسلامي، وانصرفت إلى حظيرة الاستغراب المأفون،، لتبقى حبيس القمقم الأجنبي المحكم ولا يكون لها متنفس في عالم الإبداع والغايات المستقلة.

لقد رسم المستعمرون للأمة الإسلامية خطًّا أحمر في ميدان البحث العلمي، تتحرك تحت سطحه المحدود في أمواج من التضليل والتجهيل، ولا يُسمح لها أن تتجاوزه. إنه مستوى العبودية والانصياع، تراوِح في جنباته العقول والألسنة والأقلام، وتعيش في حظيرته المفعمة بالمتاهات مع العجز والقصور إلى الأبد، ظانة أنها قد ملكت العلوم والمعارف للحاضر والمستقبل، وصارت أهلًا للحضارة والسيادة والاستقلال.

وإذا ظهر في المسلمين أو الأقليات المختلطة بهم من يتخطى ذلك المستوى، بإنتاج علمي بكر ومنهج للبحث قمين بالإبداع وتفكير مستقل لامع، حُكم عليه بالوأد أو التصفية أو الاقتناص. فالعدو يرقب ذلك كله في بلادنا وفي صفوف الموفدين، فإذا لمح بوادر نبوغ أو إبداع لدى باحث منّا حاول شراء ضميره بالمال والجنس والمراتب، ليهجر وطنه ويمنح جهوده شركات أجنبية ومصانعها ومختبراتها ومراكزها العلمية، وإن استعصى عليهم حاصروه بالضغوط المختلفة لإجهاض مشروعاته وتطلعاته أو ترحيله نهائيًا من عالم الوجود. والمسؤولون في البلاد بشكل عامّ جاهلون جبناء منافقون زاهدون بالعلم والعلماء، همهم التزلف إلى الطغاة المستبدين وتمضية الأمور بما يتيسر، وإن ادّعوا الحرص على العقول وحفظها من التسرب والبلاء.

وفي هذا المضمار المقنَّن المحدود، نُقلت إلينا العلوم والآداب والفلسفات والفنون بمؤلفات أجنبية مستشرقة، أكثر أصحابها رجال دين من النصرانية الغربية أو اليهودية الماسونية. فالعلوم تكون بالمصطلحات والرموز والمعادلات والمفاهيم الأجنبية، لئلّا يستطيع الدارسون استيعابها بوضوح ودقة، فلا يمكنهم أن يولدوا منها علمًا عربيًّا أو إسلاميًّا مستقلًّا، يبني للأمة قدرات منتجة.

بل إنها لتُدرَّس باللغات الأجنبية المختلفة في أكثر بلاد العرب والجامعات الإسلامية، لترسخ جذور الغربة في العقول والأقلام، وتبقى مرتبطة بما يجود عليها به رجال التسلط والاستعباد. وإذا حاول بلد إسلامي مثلًا السعي لتوطين تلك العلوم حالت العراقيل والمتاريس، دون حركاته بشتى الوسائل، وأظهرُها العائدون من الغرب والشرق بالثقافات الهجينة والمناهج المتهافتة والأساليب المتأوربة. فإذا المحاولات تتعثر وتنتكس، وتفقد كثيرًا من محتواها المرتقب، والأمة في مد وجزر تراوح بلا انطلاق.

وإذا قُدِّر للباحث أن ينشئ موضوعًا علميًّا أصيلًا فُرض عليه أن يورد فيه نظريات المستشرقين والعلماء الأجانب، ويعتمد عليها في تقرير الحقائق والأحكام. وإلّا رُدّ موضوعه بأنه غير متتبع الأصول المقررة. وكذلك يجب عليه أن يورد الإحالات بالأسلوب الأجنبي المعكوس على غرار ما يسير عليه كتّاب الغرب والشرق في بلادهم، خلافًا لما أسسه علماؤنا المسلمون. ولقد شهدتُ في بعض الجامعات العربية أن بحوثًا علمية نحوية رُفضت، لا لقصور فيها من الأدلة والنتائج، بل لأنها غير مرتبطة بمذاهب الأجانب ومصطلحاتهم وأساليبهم، في الدرس والإحالة والتوثيق، فاعتذرت عن الإشراف حتى تُنظّف القلوب من البهتان.

وكذلك شأن الدراسات التطبيقية والإنسانية كلها في البحث والتأليف، حتى لو كانت في ميادين علوم القرآن الكريم أو الحديث الشريف. فهي محكومة بما أراده المستشرقون أيضًا في العلوم الإسلامية وعلوم اللغة والأدب والنقد والمجتمع والنفس والتربية... هم الذي أطّروا تلك الميادين، ورسخوا فيها الأحكام المنحرفة الجاهزة، وفرضوها علينا بالعُنجهية والتسلط والاستبداد. وكل ما نتجه نحن يجب أن يسير في تلك الركاب، وينهج ما خُطِّط لها باستسلام ووفاء دائمين. وإلّا كان رجعيًّا، لا يعرف أصول البحث العلمي الحديث.

فاللغة العربية مثلًا بعلومها المختلفة يجب أن تنصاع، للأحكام التي وضعها المستشرقون في الدرس اللغوي من اللسانيات العجماء، فتُشتق لها الصفات والخصائص والقوانين بتوجيه من ذلك. وعلى هذا فلغة العرب أثرية متخلفة، تعثرت في تطورها، وتحجرت على صورتها القديمة، ولا يمكنها أن تساير الحاضر والمستقبل إلّا إذا خلعت سياج الفصاحة، وتوزعت في لهجات محلية، كما انتهت إليه اللغة اللاتينية مثلًا. ولذلك ترى المستشرقين يشجعون دراسة اللهجات العامية لتتصدر الإنتاج في العلوم والآداب.

هم يزعمون أن العربية الفصحى عسيرة المنال، لا تستوعب إنجازات الحضارة، وأن النحو العربي معقّد لا يتقنه فحول العلماء. لقد تجاهلوا ما عرفه التاريخ، من تأصيل العربية الفصحى للمفاهيم والمصطلحات والبحوث في تاريخ الإسلام وتجديدها للحضارات الإنسانية في مؤلفات ومجالس علمية مشهود لها بالتفوق والامتياز. ثم هم يتناسون أن كثيرًا من غير العرب أتقن لغة القرآن، وصار فيها العَلَم المشهور، يدرس أصولها ويحقق قواعدها، ويضع فيها المصنفات الخالدات، تعلّم أبناء العربية ما لم يدركوه بأنفسهم. وهذا ما لا تعرفة غير العربية في العالم.

أما النحو العربي فقد كنتُ في جهل به تامّ، ثم درَستُه كله مع علوم اللغة في خمسين ساعة، من الجلسات المدرسية الليلية بعد مشاق الأعمال المهنية في النهار، واستطعت الإحاطة به كاملة ـ والحمد لله ـ ونجحت في امتحانه بتفوق وامتياز مع زمرة من العمال العصاميين، وأصبحت فورًا مدرسًا للغة العربية، ثم هاأنا ذا فيه من الباحثين بعون الله تعالى. وهذا أبو حيّان النحوي يصرّح أنه درَس علم الصرف على شيخ له في بضعة أشهر، وهو من هو في ذلك العلم المعروف[1]. وذاك أبو جعفر الطبري يحتاج إلى علم العروض، فيسهر عليه ليلة واحدة ليصير في حوزته من بعض معلوماته[2]، وحسْبك سيبويه يدخل البصرة في شبابه يلوك لُكنة فارسية، وبعد عشر سنوات يصنّف ما يسمّى بين العرب حتى الآن: قرآن النحو. فأين العسر والتعذر والاستحالة؟

والأدب العربي القديم مثلًا آخر تَصدر الأحكام عليه من أفواه المستشرقين هناك. فهو أدب سطحي مادي كل صوره ومعانيه وأساليبه تقليدية متحجرة لِما في عقول العرب من بدائية وقصور وركود. ولذلك زعم الحاقدون أن ما كان في الجاهلية من حكمة أو تعقل أو تألُّه هو وارد من النصرانية أو اليهودية أو مصنوع منحول، لا يجوز أن ينسب إلى ما قبل الإسلام. ثم يجب أن يقسم الغزل مثلًا في الحجاز إلى عذري ومحقِّق، وتنتشر قصائده ومقطعاته في ربوع مكة والمدينة، لترسخ شيوعة الميوعة واللهو حيث مجالس الخمر والغناء والرقص والفحشاء.

هذا ما صدّره إلينا المستشرقون عن واقع الأدب العربي في بعض الحقب

(١) المبدع في التصريف ص ٤٦.

(٢) معجم الأدباء ١٨: ٥٦. وانظر المهارات اللغوية وعروبة اللسان ص ٣٢ـ٣٩.

التاريخية، وقد عبر إلينا على جسر عربي مُدَبلَج، لُقّب بعميد الأدب، كان ناقمًا على الأزهر الشريف ورجالات العلم والأدب، اختطفوه ليغذّى بالأباطيل والأكاذيب، ويمنح الدرجات العلمية العالية، ويرفق بزوجة كافرة تسدّد خطاه في التضليل والإفساد. لقد تلقّى المعارف والأحكام من أفواه الحاقدين، أو من قراءة زوجة فرنسية تُكِنُّ للعروبة والإسلام، أيّةً كانت درجة إخلاصها ووفائها، ما لا يخفى على أحد. فما قولك في منهج علمي للبحث، يمر بتلك القنوات المُبرمَجة، ثم يتصدر الميدان بقدرة هذه القادرة وزيرًا للتربية والتعليم وعميدين للأدب العربي وكلية الآداب مع جهله بالنحو والشعر، لتتلقفه النفوس والأقلام، وتسير في مزاعمه إلى هذه الأيام؟

ثم لمّا أرادوا تشويه التاريخ الإسلام سياسة واجتماعًا وخلقًا زعموا أن الأدب صورة حقيقية للأمة، ومرآة تعكس الواقع الفعلي لها، وقد بشر تلاميذهم بذلك، فجعلوه أصلًا متداولًا في مقررات التدريس ومصنفات الأدب ومؤتمراته وندواته ومحاضراته. وعليه فإن ما ورد في مصنفات الإمتاع والمؤانسة، من نحو «كتاب الأغاني» للأصفهاني، هو يمثل الحيوات السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية للشعب المسلم وقاداته وعلمائه، وهو أيضًا مصدر معتمَد لكل بحث علمي في تاريخ الإسلام كما زعم عميد الأدب وأتباعه.

لقد تناسى هؤلاء المُنظِّرون أن مثل هذا الكتاب وُضع لتاريخ الأغاني، وجَمعَ ما يُمتع الأسماع ويطرب النفوس من حياة الجواري والمغنّين والنتاج الأدبي المتصل بالعواطف والخيال. فطبيعي أن يكون ميدانًا لِقطاع متميز باللهو والعبث ومجمعًا لأشعار وأخبار وشخصيات، مادتها التغني بالأوهام، وإشاعة الطرب والتمتع بالغناء. وطبيعي أيضًا أن تكون القصص المحوكة حول ذلك خيالية، هدفها التسلية والإمتاع دون التقصي للحقائق والمعلومات الواقعية في التاريخ.

ثم إن الشعر، فيما يعرفه الجميع، هو رؤية لصاحبه وصبوات وأشواق وتطلعات، تتيح له الانطلاق من الواقع، ليصوغ إنتاجًا يملأ نفسه، ويحقق له الإبداع واللذة وإيحاء الفاعلية والانفعال. فهو لا يَسأل عن الصدق الواقعي، بقدر ما يتلمّس الصدق الفني، للتعبير عن تجاربه المصطنعة وأحلامه المتصورة وعواطفه الذاتية المجنحة وأشواقه وصبواته، وتوليد ما يُشعر بالإبداع والتفنن.

وإلّا فماذا يقولون في الغزل بالمذكر عند من عُرف بالتقوى والصلاح والعفاف؟ وما رأيهم في وصف الخمرة لدى من لم يذقها قط؟ وكيف يفسّرون تغزّل أحد الشعراء بمائة معوّق من أعمى وأعرج وأعور وأشلّ وأبرص وأبله وأصلع...؟ وعلام يحملون غزل شاعر آخر بألف من مثل هؤلاء؟ أليس في هذا ما يحقق النزعة الفنية لإبراز الجمال حتى في القُبح تفنُّنًا وابتداعًا دون تجارب واقعية؟

كلنا يعلم علم اليقين أن الشعراء، إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ﴿يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ، وأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ﴾؟[1] إنهم رجال فن وخيال، تُعتمد أقوالهم لرصد الحياة الشعرية، ولا يجوز جعلها مادة للتاريخ الحقيقي للأمة والمجتمعات، إلّا إذا كان الباحث من الغاوين، أي: الشياطين الذين يقودهم الشعراء في مهاوي الضلال، كما جاء في العبارات الكريمات هذه. فحسْبنا اجترار الأباطيل والتّرهات، ولنَعُدْ إلى أصول البحث السوي غير عابئين بما يدبره المرجفون.

ثم لمّا أراد المستشرقون والمستغربون حجب القرآن الكريم عن منصة القيادة للأمة في الحضارة والعلم والعمل والسياسة والاقتصاد والجهاد زعموا أيضًا أن الأدب هو الذي يقود الشعوب في الحركات الإصلاحية والثورات، وينهض بالهمم لصناعة المعجزات. وبمثل هذا بشّر تلاميذهم فيما ألفوا من تاريخ للأدب ودراسات

---

(١) الآيتان: ٢٢٤ و٢٢٥ من سورة الشعراء.

للأدباء وتطور المجتمعات. فلا غرو أن يتصدر الأدباء مسيرة الحياة، ويعيش القرآن الكريم في زوايا المآتم والحفلات، في إطار من التغني والاستمتاع.

ذلك هو ما غُرس في عقولنا منذ عشرات السنين ودُعّم بالأدلة المفتعلة والشواهد الملتوية، حتى نسينا أن أدب الجاهلية على ما فيه من نضج وتألق وإبداع لم يستطع أن يحرك العرب خطوة واحدة نحو الخير أو التفتح والاستقلال عن سيطرة الروم والفرس، ليكون خطابًا ثوريًّا للجماعة بعيدًا عن الذاتية المغرقة. بل كان يعيش في ركاب التبعية للقيم السائدة وتوجهات القادة والزعماء، ليزيد الأمة انحدارًا وعبودية لغير الحق. وهو ما نراه اليوم في كثير من وسائل الإعلام ونتاج الأدباء المستنفعين في بلاد العالم كله.

وإليك مثلًا زُهير بن أبي سُلمى الذي عُرف في أيامنا بأنه شاعر الحكمة والسلام، ونُشرت حوله هالات الصلاح والقيم والإنسانية. فلقد عاش في بني ذبيان أربعين سنة مع حرب داحس والغبراء، يتغنى بالعدوان كيدًا ونجعة، ويمتدح القادة بما يخوضونه من المعارك في قتال إخوتهم بني عبس، ويمجد القتل والتشريد والسبي وسلب الغنائم. ثم تراه حين اتفق الزعيمان على الصلح راح يُشيد بالسلام، ويشنع ما تجره الحروب من ويلات.

فأين استقلاله الفكري؟ وأين قيادته للصلاح والإصلاح؟ وهل غيره من الشعراء كانوا أفضل منه في ذلك؟ الحقّ أن العرب عاشوا مع الجاهلية والطيش والتبعي قرونًا متطاولة، وما كان لأدبهم الرفيع أن يزحزحهم قيد أنملة عن ذلك. حتى إذا دوّت آيات الله عز وجل في أسماعهم وقلوبهم هزت أركان الضياع، ودفعتهم نحو التحرر والقيادة وصناعة الحضارة والتاريخ. وعندما شُغلنا نحن بأباطيل المستشرقين وصنائعهم، رجعنا إلى الجاهلية الجهلاء في ضعف وعبودية للمعتدين

الغاصبين واستسلام لكل أنواع الذلة والتبعية والاستخزاء، وصارت ديارنا وقلوبنا كالمومسات، لا نرديد لامس، ولا تعرف الحصانة والمناعة والاستقلال.

وفي مجال التاريخ للأدب مثلًا، تجد المناهج الملتوية والمكشوفة، لتشويه الحقائق والمعلومات والنتائج المرجوة. ولو رجعت إلى الأب لويس شيخو مثلًا في «شعراء النصرانية» لوقفت على الصورة المُغرضة الهدّامة. فكل شاعر عاش قبل الإسلام أو بعده، وكان قد ذكر معلومة نصرانية أو عبّر بصورة مستمدّة من حياة النصارى فهو نصراني. وعلى هذا كان جمهور الشعراء من المشركين والمسلمين نصارى بين يدي هذا الباحث البمفسد اللعين.

وفي مجال التحقيق للنصوص العربية، تجد ما هو غريب حقًّا لا يصدقه عقل حصيف. هذا أحد المستشرقين يقف على كتاب لابن جنّي اسمه «المقتضب»، فينشره منذ تسعين سنة في ليبسيغ، تحت اسم «المُغتصَب»، ويعرضه في صفحات مسيرتها من الشمال إلى اليمين على غرار مطبوعات اللغات الأوربية. أفليس في عمله ما هو «مُغتصَب» حقًّا وافتئات على أصول العمل العلمي؟

وقد مثّل لويس شيخو أيضًا صورة من التحقيق غريبة. فهو يقف موقف الواعظ فيما نَشر من تراث العرب، يحذف منه ما لا ترضاه رغباته، ويغيّر ويبدّل حتى يطمئن إلى سلامة ما بين يديه من زاوية الرقابة الشخصية، بدعوى صيانة الآداب العامة والأخلاق. وأظهر ما تراه من ذلك يمثله كتاب «تهذيب الألفاظ» الذي نشره تحت اسم «كنز الحُفّاظ»، حيث أسقط مئات النصوص، وبدَّل عشرات العبارات، لأنها تخالف الرهبنة التي هو سيّد فيها. وهكذا اطمأنّ أنه رهينَ الكتاب والنصوص العربية. ولو سلك سبيله كلٌّ ملتزم بدين أو مذهب سياسي أو طائفية خبيثة أو رأي شخصي، وتصرّف فيما لا يرضى عنه ضميره ونزعاته، لما بقي من التراث شيء يذكر.

وكثيرًا ما أقحم المستشرقون معلومات، زعموا أنها مسلّمات، وغرسوها في كتبهم ومقالاتهم والمحاضرات، لتكون لها الشيوعة والأثر الفعال في النفوس والسلوك والأخلاق. ففي علم الاجتماع مثلًا نقلوا إلينا خلاصة واقع مجتمعاتهم، فكان منها أن القيم الاجتماعية كلها نسبية، تتحكم فيها الظروف المتجددة، فتُلوّنها بالأصباغ المختلفة تبعًا للزمان والمكان والبيئة والمجتمع.

وعلى هذا، فليس ثمة قيم تبقى لها السيادة والتحكم في النفوس والأعمال والمواقف. ومن ذلك مفاهيم الصدق والأمانة والصلاح... فالشرف الذي يعتزّ به العربي والمسلم، ويتصلّب في صيانته ومتابعة أمره، هو على سبيل المثال قيمة اجتماعية متخلّفة، تناسب عصور الرجعية والانحطاط، وقد حل محله في العصر الحاضر مفهوم جديد يناسب التألق الحضاري، وهو حب الوطن الوثني مثلًا. فهذا هو المعنى الجديدُ للشرف والمقياسُ الوحيد لصلاح الإنسان الحضاري المعاصر كما يرى علماؤهم وزعماؤهم.(١) وإلّا فما معنى أن يغار الرجل أو المرأة، وينفر من

---

(١) في اجتماع لأعضاء الكونجرس يوم ٢٩/ ١/ ٢٠٠٢، ذكر الرئيس الأمريكي جورج بوش الصغير صلابة الاتحاد اليهودي والمسيحي الأبيض الثري وهيمنة القوات الأمريكية على العالم، وتحدّث عن إطلاق الحرية في زراعة الأفيون بأفغانستان، ثم قال: لن نتوقّف حتّى يصبح كلّ عربي أو مسلم مجرّدًا من السلاح، وحليق الوجه وغير متديّن ومحبًّا لأمريكة، ولا يغطي وجه امرأته نقاب... ونعتبر أن جميع المنظمات الدولية والسياسية التي تعارض كلّ هدف يتعلق بالمصلحة الوطنية الأمريكية الإسرائيلية يجب حلّها فورًا...

سنقوم نحن - شعوبَ العالم من الجنس الأبيض المتحضّر - بفرض معتقداتنا على عالم جائع لأموالنا ورسالتنا، ولن يخضع الرجال بعد الآن لشرط إطلاق اللِّحَى، ولن تخضع النساء لشرط تغطية وجوههن وأجسادهن. ومن الآن فصاعدًا يحق للعالَم تناول الخمر والتدخين وممارسة الجنس السوي أو الشذوذ الجنسي، بما في ذلك سِفاح القُربى واللواط والخيانة الزوجية والسلب =

الاستهتار

الاتصالات الجنسية المحرمة وما يحوم حولها من الدعارة والمجون والاستهتار؟

لقد كان هذا كما علّمونا مصونًا في المجتمعات المغلقة، ولكنه بمقياس التمدن والحضارة مرفوض لِما يحدّ من حرية التمتع، ويثير من الخصومات والتحكم في الشهوات والميول والغرائز بالكبت والكفّ والإحباط. وعلى الجنسين أن يتخلّيا عن تلك الحماسة البالغة، ويدعا للرغبات الشخصية أن تأخذ حقها من المتع دون حد أو مقياس، ليكون للفساد مسيرته في الأمّة وطغيانه على الضوابط والقوانين والأعراف، كما نرى في مجتمعاتهم هم وفي بعض قطاعات مجتمعنا الإسلامي اليوم.

وفي علم النفس أيضًا، أطلقوا أحكامًا مخرّبة لسلوك الطفولة والمراهقة والنساء والرجال، وفتحوا باب التسيّب الجنسي والأمراض الخطيرة، باسم محاربة الكبت والكف والحرمان. لقد زعموا أن الغرائز إذا أُطلق لها العِنان بتحقيق منازعها تستقرّ

= والقتل وقيادة السيارات بسرعة جنونية ومشاهدة الأفلام والأشرطة الخلاعية داخل فنادقهم أو غرف نومهم. وبالنسبة إلى شركاتنا التي تنتج مثل هذه المنتجات فسيحقّ لها الوصول من دون عقبات إلى الدول المتخلّفة التي منعت تلك الحريات عن شعوبها. انظر ص ١٧ من العدد ٨٣٠٠ لجريدة الخليج الصادر في ٨/ ٢/ ٢٠٠٢.

إنها دعوة صريحة إلى ما كان عليه الوثنيون في تاريخ الأنبياء، عليهم السلام. والتبويش: ترجمة سياسية لِما يُعرف اليوم باسم العَولمة. فهذه الصرخة المعاصرة كشفٌ لِما كان يسعى إليه جميع زعماء أمريكة وحلفائها في السرّ والخفاء منذ عقود، تُنسب الآن إلى صاحبها، بما تحمله من غوغائية وتسلّط وطغيان وعدوان وتدمير للبلاد والعباد والحضارات والقيم. فكأني به يرى نفسه زعيم يأجوج ومأجوج، ليزحف بهم إلى ما في الدنيا من خير يستأصله وينهي الحياة الدنيا. والأصل في التبويش في العربية هو الصخَب والجعجعة والاضطراب. وهو فيما أرى غضبٌ من الله ـ تعالى ـ صبّه علينا، لتنبيهنا إلى واجبات القوّة ورباط الخيل. والبَوش في اللغة هو كما ذكرنا قبلُ: الغوغاء والاختلاط، جمعه: أبواش وأوباش، على القلب المكاني.

في النفوس، وتشجّع على الإبداع والنشاط لأنها ترتوي بما تصل إليه، وتكتفي بما تحققه من غاياتها الدفينة. وهانحن أولاء نرى أن ذلك كذب وافتراء، فما لبثت غرائز الجنس في بلاد أوربة وإنكلترة وأمريكة وروسية والصين واليابان، تبتكر أنفاقًا لها شنيعة متجدّدة، ثم تقول بصوت مسعور: هل من مزيد؟

ولكي يعالجوا لنا مثل هذه الانحرافات التي زعموا، دسوا إلينا ما أسموه بالتحليل النفسي مدّعين أنه يحلّ مشكلات النفس، ويزيل العقد غير الشعورية، وينتقل بالإنسان إلى الطمأنينة والسلامة. لقد حملوا إلينا أساليب الاعتراف الكَنَسي على أنه السبيل الوحيد للعلاج والشفاء. وهكذا صار الطبيب النفساني رجل تطهير بين المسلمين أيضًا، لديه كرسي للاعتراف، يَنصِب فوقه المعقَّدين المنحرفين، ليعترفوا له بما اقترفوا وأجرموا أو ما زرعت البيئة في نفوسهم، فيمنحهم عبارات الغفران والبركات والخلاص. هذا ما يقوله دعاة الإصلاح للنفوس والمجتمعات.

وتاريخ العلوم والفنون والفلسفات لعبت فيه مباضع المستشرقين أيضًا، فإذا بمراحل البحث مشطورة موزّعة بين الأمم الوثنية الأعجمية القديمة والأمم الأوربية المتأخرة. كذلك يؤرِّخ كل موضوع مما ذكرت، لتكون قفزة جبارة من الحقب البعيدة، إلى مطالع عصر النهضة العربي المزعوم، أعني عصر الانحطاط بزعامة محمد علي الكبير كما ذكرت من قبل. وخلال ذلك فجوة من العصور، تغيب فيها آثار العرب والمسلمين، ويسقط كل ما صنعوه في تاريخ الإنسان.

فقد درسنا مثلًا، في معاهد التربية الابتدائية والعليا ومصنّفات علماء الشرق والغرب كثيرًا من الموضوعات الإنسانية، كعلوم التربية والنفس والمنطق والمجتمع وأصول التدريس والتعليم والتوجيه والإدارة، فإذا هي نتاج غير عربي ولا إسلامي، ولا صلة لها بما كان لنا من ماض أو حاضر، وليس للعرب والمسلمين فيها أثر

مشهود. ولما سأل أحد زملائنا الأستاذ بإنكار، عن اقتصار المناهج والمصادر على هذين الشطَّين من حياة العلوم والفلسفة، وإغفال ما لدى الأمم الأُخرى في العالم أجابه بسُخط وتأفّف: هل تريد أن أبحث عن ذلك في الكونغو؟ ثم إذا ذُكر أحد علمائنا القدماء في تلك الموضوعات فغالبًا ما يكون الحكم عليه بالتبعية والتقليد للوثنيين القدماء، حتى لنتمثّله عالة على الأقدمين في الفكر والفهم والتطبيق.

هكذا تعلمنا نحن جيلًا بعد جيل، حتى رسخ في أذهاننا ما اختلقه علماء الاستشراق من الترّهات والأباطيل، فإذا قُـدّر لنا أن نبحث جانبًا من تلك الموضوعات انصبت علينا عشرات المصادر، تمدنا بما يحقق إبعاد أجدادنا عن حياض البحث العلمي. وقد استشرى ذلك في كثير مما نصنفه أو نترجمه بشكل لا يسمح لنا أن نفكر في خلافه أو إنكار الباطل أبدًا.

وعلى سبيل المثال، أذكر أنني كَلّفتُ طالبًا بدراسة لتاريخ علم الجمال في بحث أدبي نقدي لنيل درجة علمية عليا، فكان ما قدمه ذا شطَّين أيضًا موزعًا بين الفكر اليوناني والدرس الأوربي الحديث. وعندما سألته عن جهود العرب والمسلمين في ذلك، قابل كلامي بالاستغراب والتعجب، أن يكون لهم شيء في هذا السبيل. فأحلته على تراث رجال الإعجاز القرآني والفلاسفة والمتصوفة والمفسرين والبلاغيين ونقاد الأدب في تاريخ الإسلام، وتركته مدة وجيزة، فإذا هو يعود بما يفضح أحابيل المستشرقين، ويضع في تاريخ علم الجمال ألوانًا من التأصيل والاصطلاح والتحليل العلمي الدقيق مما لم يعرفه أساطين العلم الحديث.

أمّا العلوم التي أحدثها العرب والمسلمون كالفقه والتفسير وأصول الدين... وتربية الأطفال والنحو والبلاغة والعروض فقد حاول المستشرقون ردها إلى التأثر بالأمم المجاورة والبعيدة كاليونان والفرس والرومان والهنود.

كل شـيء مـن محدثـات علومنا يجب أن يُردّ إلـى بعض هؤلاء باللِّيـن أو بالقهر، ولا يبقـى لنـا مـن ذلـك إلّا التفريعـات السـطحية والتطبيقـات المسـتضعفة الهجينة.

ومن أغرب ما طلعتْ علينا به الدراسات الأجنبية في هذا المجال أن المسلمين لم يعرفوا نقد النصوص وأسانيد الرواية لتقويمها وتوثيق مادتها وأساليب نقلها، وأن هذا العلم إنما عرفه الدرس الأوربي المعاصر. وقد انتشرت هذه المزاعم بيننا، وتناقلتها الأقلام على أنها حقائق تاريخية لا تحتمل النقاش. لكأن من يدعي هذا لم يطلع على ما ابتكره علماء القرآن والحديث والتاريخ والتراجم، وما نفذوه فعلًا من جرحٍ وتعديل للرجال وتعيين للطبقات والمنازل، وتمييزٍ لأنواع القراءات، وتحديد لدرجاتها وما هو مقحم للتفسير والبيان، وتصنيفٍ لمراتب المحدِّثين، وأنواع الأحاديث ودرجاتها من الصحة والضعف والإنكار والاستحسان...

حتى الأبجدية العربية لم تنج من عدوان هذا الأخطبوط الرهيب. فقد اعتصرها بين استطالاته القاهرة، ليحطم نسبها العريق، ويختلق لها أصلًا أجنبيًّا قديمًا، هو الخط الهيروغليفي مرورًا بالكتابة الآرامية. على هذه الفِرية يُدرس تاريخ الخط العربي، وتُقدّم الأطروحات والمؤلفات العلمية المعاصرة، مع أن أصالة خطنا الكريم مشهورة بين الباحثين، ومعروف محتدها القديم، في الحضارة اليمنية الغابرة.

وقد بسط هذه الحقيقة غير واحد من العلماء، ثم جاء ابن خلدون ليذكر في «مقدمته» المشهورة أن الخط العربي تأسس في بلاد اليمن منذ آلاف السنوات، حيث المملكة المستقرة والزراعة والصناعة والتجارة. ولما تهدم سد مأرب، وهاجر اليمانية إلى الشمال، نقلوا معهم الكتابة إلى الحيرة. ومن هذه البقعة أخذ أهل مكة ويثرب أصول الخط، ليكون له التفنن الذي عرف بعد في العصور الإسلامية[1].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٧ ـ ٥٥٨.

فإن صح أن بين الكتابات العربية والهيروغليفية صلة في شكل من أشكال النسب أو القرابة فأيتهما تكون سليلة الأُخرى؟ إن تاريخ العروبة في اليمن ضارب في القدم قبل الفرعونية التي رجالها من العرب الأقحاح. فلقد هاجر قسم كبير من عاد وثمود إلى مصر أيضًا في قديم الزمان، وكانت لكم مملكة الرعاة، فنقلوا معهم آثار حضارتهم وفيها اللغة والكتابة. أفليس من الطبيعي أن يكون للمتأخر نقل عمن تقدمه بقرون، أي: أن تكون الرسوم الهيروغليفية قد استمدت أصولها من العربية، وهي بُنيّة لها مستعجِمة؟

هذا أستاذ جامعي متأورِب مساعد متخصّص في تاريخ اللغات، يتقدّم ببحث يسمح له بالانتقال إلى مرتبة الأستاذية موضوعه تاريخ الخط العربي، فيلوك فيه الأقوال والنظريات ليرد الخط العربي إلى أُصول أعجمية كما أملى عليه أساتذته في ألمانية، ولما ذكرتُ في التقرير إغفاله الأصالة العربية، وأحلت على مقدّمة ابن خلدون وغيرها، تملّكته الغضبة الألمانية، وانطلق في سبل الكيد والعِداء.

بل إن نَقط الإعراب الذي عرفه العرب في الجاهلية، وكان بعضه فيما سجّله كَتَبَةُ الوحي القرآني، وأزاله الرسم العثماني الكريم للتمكّن من جمع القراءات القرآنية الصحيحة في بضع نسخ كما ذكر رجال علوم القرآن، ثم جدّده أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩) لضبط ألفاظ المصاحف صيغة وتركيبًا، هذا العلم العربي القديم زعم المستشرقون أنه منقول عن السريانيين، وتناقل هذه المقولة كثير من الدارسين المستغربين، بدون فهم أو إدراك[1].

---

(١) محاضرات المستشرق جويدي ص ٨٣ ـ ٨٤ واللمعة الشهية ص ١٦٢ ـ ١٦٣ وفقه اللغة للوافي ص ٥٩ و٦٦ و١٧٤ وقصة الكتابة العربية ص ٤٩ ـ ٥٠ والأبجدية الفينيقية والخط العربي ص ١٩٦ ـ ١٩٧ وأطوار الثقافة والفكر ص ٥٣٤.

لقد نسي هؤلاء وأولئك ما كان للعرب من إبداع في اللغة وعلومها المختلفة، وما يحيطها بالحفظ والضبط والتجويد، قبل أن يتصلوا بالشعوب المجاورة، وتجاهلوا ما كان لأبي الأسود من جهود في علوم العربية، حتى إنه قد درّس نحاة عصره إعراب القرآن أكثر من أربعين سنة[1]. ثم إن السريان هم من العرب المستعجمين الذين عاشوا في حواشي الجزيرة، فكان في لغتهم بعض العجمة، وليسوا أمة غير عربية كما يزعم المستشرقون وربائبهم. ثم هل كان للسُّريانية في ذلك العصر إعراب حتّى يكون له علامات؟[2]

سبيل الخلاص

إن ما ذكرناه حتى الآن هو غيض من فيض، يمثّل ما ابتُلينا به في مسيرة البحث العلمي، حين وضعنا أزمّتنا في يدي الخصم الغاشم، واستسلمنا للسبات العميق، لا ندرك ما يحاك حولنا من مكايد ومؤامرات. وعندما نثير مثل هذه المعضلات، ونكشف أقنعة الغزو الثقافي الحضاري، ونبسط ما خلّفه من تضليل وتخريب، فإننا لا نشكو أمرنا إلى العدوّ، ولا نطالبه بالنصفة والعدالة، ولا نسأله الرحمة وحقوق الإنسان.

فهذه نغمات يتغنى بها الطواغيت المنافقون سماسرة القيم والشعوب فينا وزبانية البغي والاستعباد، لنستنيم في أحضان الأوهام بانتظار الرحمة والإشفاق. إن العاجز المَهين هو الذي يشكو ظُلامته إلى عدوّه، ويطالبه بإنصافه وإزالة بغيه وعدوانه، فلا يجد إلّا إمعانًا في الصلف والتعنت والاستبداد للأن حيازة الحق لا تكون بالتزلف والاستجداء.

(١) انظر بغية الوعاة ١: ٤٩٣.

(٢) انظر فقه اللغات السامية ص ١٠٠ ـ ١٠٢.

ولسنا نتهم هؤلاء الأعداء بجور علينا، أو نعاتبهم أو نلومهم أو نحمّلهم مسؤولية ما نحن غارقون فيه. فهو من صنع أيدينا وقبول نفوسنا وإصرارنا على متابعتهم في جميع مرافق الحياة، وهو أيضًا واجب على الأجنبي المستعمر، وحق له يقتضيه منه موقفه السياسي والعسكري. ولو قصّر فيه لكان خائنًا لأمته الباغية ورسالته الخرقاء لِما انغمس فيه من أخلاق يهودية آثمة.

فهو قد بذل في سبيله جهود قرون وقرون حتى أدرك ثماره، ولا يجوز أن يعود من تلك الأحقاب بخُفَّي حُنَين، ثم لو كان بعض زعمائنا القياديين المنافقين في موقف أولئك المستعمرين لما خرج على ما يتابعونه من الحجب والتعطيل والتشويه في بلاد الأعداء وضمائرهم والعقول، لما جبلت عليه النفوس بالتربية العدوانية من حب للقهر والاستعلاء. وها أنت ذا تراه في بلاده وبين إخوانه وعشيرته يشجّع التضليل والفساد والمذلّة والهوان ليسلم له ما هو فيه من الطغيان والاستعلاء.

حقًّا إن الإسلام لا يرضى لأتباعه أن يفعلوا مثل هذا، بل يحرّمه عليهم، ويهدّد من يفعله بعذاب الدنيا والآخرة. ولَحقٌّ أن الأديان السماوية الأُخرى تشجب ذلك وتأمر بخلافه، إلّا أن الروح اليهودية الحاقدة هي التي توجّه جمهرة القيادات العالمية والوطنية والقومية في بلادنا، وتشجعها على البغي والعدوان والإفساد. والحق أيضًا أن أجدادنا كانوا بعيدين عن هذه المعاملات المنكرة، ولم يقابلوا غيرهم من الشعوب بالتجهيل وتعطيل الفكر والنتاج العلمي، بل شاركوهم فيما حملوا من مفاخر البحث والتنقيب، لأنهم يعلمون أن حجب ذلك ظلم حرّمه الله عز وجل على نفسه، وجعله محرمًا فيما بين جميع العباد، دون تمييز لجنس أو دين.

إنهم يعتقدون بوجوب عون الناس في نشر العلم والمعرفة وتشجيع البحث في ظواهر الكون والحياة لتحقيق إنسانية البشر وخلافتهم في الأرض، وليس في قلوبهم عداوة لمن يُسلم زمامه إليهم لأنه إمّا ذِمّيّ هم مسؤولون عن حمايته وتقديم الخير له، وإمّا معاهد تجب حرمته وصيانة حقوقه كاملة مع المعاملة بالمثل. أمّا المحارب فشأنه معروف، ولا حاجة إلى ذكر ما يكون له في مثل هذا المجال، ما دام يعلن الحرب والقتال.

ولهذا فإن المسلمين، عندما فتحوا العالم، نشروا بين شعوبه كل ما يدخرونه من ألوان العلوم والمعارف، وبذلوا في ذلك منتهى الجُهد وأقصى ما يستطيعون. ونتيجة لذلك أصبحنا نرى في كل بلد تحت ظل الإسلام كبار العلماء من المسلمين والنصارى، يمارسون البحث العملي، وينبغون في الدراسات الإسلامية وغيرها، حتى كان نتاجهم في الكمّيّة والكيفيّة يربو على ما قدمه العرب المسلمون. وهذه صفحات التاريخ شاهدة على ما نقول.

على أن الخصومات السياسية في أيامنا هذه تدفع بعض القيادات عندنا أحيانًا إلى نسيان الأحكام الشرعية، وتبيح لهم اعتماد الرُّخَص المريبة، لتنفيذ مآرب الحقد والكراهية فيمن يعاند أو يخالف وتخريبِ منافذ العلم والمعارف. ولعلك ترى ما يكيده بعض المسلمين لبعض في كثير الأحيان، من مؤامرات وعدوان لإعاقة التحرر وعون للغزاة كما كان عليه رجالات الباطنية الإمامية في تاريخ الإسلام[1] وملوك الطوائف في

---

(١) إن العِرق دسّاس. وهذا حفيد سيف الدولة وهو سعيد بن شريف بن علي، ولي حالب سنة ٣٨١، ولمّا ضايقه حصار المسلمين في القتال استعان بالروم لحربهم، فسقته جارية السمّ وقضت عليه. انظر زبدة الحلب في تاريخ حلب ص ١٨٥ ـ ١٩٢.

الأندلس، لسحق القدرات النامية وتعطيل السير في مجالات العلم والعمل والإنتاج خشية أن يقوى الساعد، ويكون في ذلك لغيره مخاطر بطش أو تهديد.

وإنما يكون السبيل القويم في البحث العلمي بعد هذا كله أن نعود إلى القرآن الكريم والسّنّة الشريفة، وإلى ما أسسه علماء أصول الفقه وأصول الدين ورجال البحوث العلمية من المسلمين وما وضعوه من قوانين ضابطة للإنتاج العلمي الصحيح. نَدرس هذا كله بدقة وإمعان، ونولّد فيه ما يناسب الحياة المعاصرة ومنجزات المستقبل، ثم نجعله مادّة دراسية في مراحل التعليم كلها، بحسب درجات المعرفة والإدراك، ونطبّق مفاهيمه في الدراسات والتجارب العملية بإخلاص ووفاء مع الاستفادة مما أنجزه غيرنا بوعي وموضوعية وصفاء.

وتنفيذًا لهذا، أرى أن تضع المؤسّسات العلمية العليا في بعض البلاد العربية أو الإسلامية خُطّة منهجية عمادها الميدان التالي: «**إحياء البحث العلمي الإسلامي**»، أو: «**توطين البحث العلمي**». فقد خلّف لنا أجدادنا العظام في التراث العربي الإسلامي أصولًا كثيرة للبحث العلمي في الميادين الإنسانية والطبيعية والتطبيقية، كعلوم اللغة والأدب والنقد والاجتماع والتربية والتعليم والنفس والسياسة والفلسفة والتفسير والحديث والتاريخ والجرح والتعديل والمنطق والكلام وأصول الفقه وأصول الحديث والفلك والحيوان والنبات والأنواء والطب والهندسة والرياضيات والصيدلة والكيمياء والفيزياء والحيل والصنائع...

وهذا كله ظلمتْه الدراسات المعاصرة، وغمرته الغزوات الثقافية الأجنبية، وهو منثور في المصادر المخطوطة والمطبوعة، وكثيرًا ما يتداول تاريخه الزملاء الكرام في مراحل التدريس الجامعي بالتقدير والإعجاب، ويعرضون منه شذرات متفرّقة، ولا سيّما في «معهد التراث العلمي العربي بحلب» وكثير من أمثاله: مراكز البحث

العلمي في بلاد المسلمين، ثم يبقى ذلك دون سلك يجمع شتاته ويوحد أنظاره، أو تُستخلص منه المبادئ التي وجّهته ونفذته في تاريخ الحضارة، فكان عنه ما عُرف من إنتاج علمي مبارك.

ولكي نستطيع الوفاء الكريم لهذا التراث العظيم، ونتخلص من ربقة الغزوات الثقافية والعلمية، أقترح[1] أن تنظِّم تلك المؤسسات العلمية المذكورة مؤتمرات في مراحل ثلاث، مضمونها الموضوعات التالية:

١ ـ **البحث العلمي عند المسلمين**: فيكون عنوانًا لنشاط عامٍّ أو أكثر، يُجمع تحته ما تُقدّمه الجامعات والجهات العلمية والثقافية، من نتائج عن مختلِف أصول البحث العلمي الذي وَضع أصوله القرآن الكريم والحديث الشريف وأعمال الصحابة الكرام في التفكير والبحث والاستدلال والاحتجاج والتجريب والاستنتاج، ثم مارسه العرب والمسلمون ونفذوه في جميع ميادين العلوم الإنسانية والتطبيقية، ليكون مادة وافية، تساعد على اكتشاف الأسس النظرية والعملية لتلك الأصول.

٢ ـ **تنمية البحث العلمي الإسلامي**: وتحت هذا العنوان تُحشد الخبرات الجديدة التي ولّدها زملاؤنا المعاصرون في تغذية تلك الأصول والمبادئ بما يناسب العصر الحاضر من متطلبات حضارية وتِقنية. وبهذا نكون قد رفدنا الماضي بخبرة معاصرة، توحّد الخطوات بين البلاد الإسلامية، وتشجّع الباحثين والعلماء على التوليد والتنمية والابتكار.

---

(١) كنت منذ سنوات قدّمت هذا الاقتراح تلبية لرغبة المسؤولين في وزارة التعليم العالي بدمشق، ثم قدّمته إلى مجمع اللغة العربية بدمشق وإلى جهات علمية مختلفة في بلاد المسلمين، ولم أجد صدى له إلى الآن غير الإعجاب الغبيّ.

٣ ـ توظيف البحث العلمي الإسلامي: وفي هذه المرحلة تنسّق المقترحات والنظريات والوسائل التي تهيئ للتنمية المتقدّمة أن تدخل حيّز التنفيذ، في مختلِف الجامعات والمعاهد والمؤسسات العلمية والمهنية من جميع البلاد الإسلامية وغيرها، ثم تعمَّم تلك النتائج التنفيذية على الجهات المعنيّة مكلَّفة بتوظيفها فعلًا في الميادين العملية. وبهذا نستطيع تطوير بحث علمي أصيل يواكب الحاضر والمستقبل، ونقدّم للغزو الأجنبي أيضًا خدمة إنسانية، مكافأة على ما نستقبله عنه من مفسدات المبادئ والأصول في البحث والدرس والتطبيق، ونكون قد أسهمنا في الحضارة العالمية، ولا نبقى عالة نجتدي أكفّ المحسنين أيتامًا على موائد اللئام.

وبهذا أيضًا تنشأ الأجيال في بلادنا على روح إسلامي خالص، وتنتِج ما هو جدير بالحياة وممهِّد للإبداع والتميز والتحرر والسيادة، ونضع علومًا أصيلة وصناعات متفوقة، ونقود أمّتنا نحو الخير والتحرر والسيادة. وقد اقترحتُ ذلك منذ سنوات، في إحدى الجامعات الإسلامية أيضًا، ثم على قيادات التعليم العالي ومراكز اليحوث في بلدان أُخرى، فكانت الموافقة كلامًا بكلام، ولم أجد من نهض للعمل والتنفيذ.

والواقع أن المسألة مُعضِلة قاهرة، لا يدرك منها المسؤولون وجه بيان. ولهذا سئلت مرارًا في بعض المؤتمرات والمجالس والمؤسّسات: هل ترى فارقًا في البحث العلمي بين الإسلام وغيره من الحضارات؟ وكان جوابي: أن أصول البحث واحدة عند جميع الأمم، لأن خطوات التفكير السديدة أصيلة في نفس كل ابن آدم عرف هذا الوجود، منحه الله إياها وميّزه بها عن سائر المخلوقات. ولذلك كرّمه، وأسجد له الملائكة، وسخّر له ما في السماوات وما في الأرض. ولكنّ المشكلة أن العداوة تعني الظلم والعسف والمحق لكل مظاهر الخير والصلاح في المستعبَد المَهين، ونحن ما زلنا مبتلَين بسيادة الفكر الغاصب والثقافات المعادية والتحكم

المستعلي. وهذه السيادة قطعت علينا طريق العمل الإيجابي، وألقتنا في متاهات التجهيل والبطالة والتقمم للفتات، ثم إذا رأت بوادر نبوغ أو تفلّت من ربقة ذلك الفكر كان للعاصي ترغيب أو ترهيب أو قمع وتصفيات روحية وجسدية.

خاتمة المطاف

تلك هي مسيرة البحث العلمي في العالم الإسلامي، تتجاهل الجهود العظيمة التي خلفها أجدادنا في ميادين العلوم المختلفة، وتتلقف مخلّفات الأمم المعادية بعد أن تُفرَّغ من محتواها الإيجابي، وتصبح كالزائفة بين مناهج البحث المعاصر. وقد رسّخ الاستعمار في بلادنا التبعية المنهجية، وفرض علينا مستوى محدودًا من التطلع إلى الإبداع، فحظرنا على أنفسنا برضا وطمأنينة الانطلاقَ الذاتي مع روح إسلامي يقدم الصلاح للحاضر القاصر والقدرة والكفاية لمستقبل مشرق بالتحرر العلمي والإعداد لقوّة تُرهِب عدوّ الله وعدوّنا، وتبسط للعالم رسالة الحق عزيزة مستعلية.

وإنما تتحقّق هذه الأمنيات الغالية بالاتكال على الله أوّلًا، ثم على أنفسنا ثانيًا في التحرر من التبعية الفكرية والعملية وبعث المنهج العلمي الإسلامي المتكامل في المؤسّسات التعليمية والتثقيفية العليا وتزويده بتجارب الحاضر وغايات المستقبل، ليصبح قادرًا على العطاء في ميادين العلوم والصناعات المختلفة، ومزوِّدًا لنا بالحصانة الدفاعية الرادعة لكل تسلّط أو عدوان. هذا ما يعتلج في قلوب مئات الملايين من أُمّة الإسلام، وتتطلّع نفوسهم إلى إشراقه في أرجاء الوطن الإسلامي. فلنعمل له بوعي وجد وإخلاص.

ألا هل بلّغتُ؟ اللهمّ فاشهد. ﷺ

* * *

ولا يزالون يقاتلونكم...

٣

في عروبة اللسان*

ليس غريبًا عنا ما يصادفنا اليوم، من غزو ثقافي بأسماء وألقاب متعددة متنوعة. فقد أَلِفنا في التاريخ ما كان من تسلّط الجبابرة والمتألّهين والمستبدّين، بدءًا بالنُّمروذ ومرورًا بفرعون وإسكندر المقدوني والأكاسرة والأباطرة والقياصرة ورجالات الغزو الصليبي والمغولي والتتري وقراصنة الحلفاء في الحربين العالميتين الماضيتين. كل ذلك زبَد يعلو وينتفخ ويتلاشى جُفاء بثقافاته الدخيلة، ثم تبقى الحياة للحقائق الإنسانية الخالدة التي تقدّم الخير والنماء.

بين الحكمة والعولمة

أمّا الغريب حقًّا فأن يتلبّس الغزو المعاصر مسوح القِدّيسين والمصلحين، ويعتمر القُبّعة الأسطوانية المقوّاة ذات السطح المتمدّد الرفراف التي يتخذها رجالات المراتب العلمية وأرباب مناصب الوعظ والغفران في الغرب، ليسمّي ما يحمله من العدوان والتدمير والطغيان عولمة، ويفرض بالقصف والمجازر وركوب مطايا الخيانة والعبودية ما يبثّه من جبروت واستبداد. ألا لقد صدق الله العظيم: ﴿ولا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُم، حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُم، إنِ استَطاعُوا﴾(٢).

---

* أُلقي هذا البحث في مؤتمر: اللغة العربية أمام تحديات العولمة، الذي كانت جلساته ببيروت في ٨ و٩ من نيسان عام ٢٠٠٢.

(٢) الآية ٢١٧ من سورة البقرة.

لقد جعل الله الناس شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وميزهم باختلاف الألسن لتتنوع المعارف والعلوم ويكون تبادل يقدم الخير للكون والحياة بذهاب الباطل واستمرار ما هو حق أبدي. وبهذا يستمر العالَم في نموه وترفعه عن السفساف من دعاوى المبطلين، فيكون عفويًّا تبادل المعارف والعلوم والآداب والأعمال والتجارب وأساليب الحياة، ليتلقّى كل قوم من غيرهم ما هو حقًّا ذو كسب إنساني رفيع ونفع في الدنيا والآخرة للأمة والمجتمع والبشرية.

على هذا التوجّه الحميد تسير الحضارات الإنسانية بين الأمم، إذ تكون القنوات والجسور مفتوحة بيسر للأعين والقلوب، تتلقّى باختيارها الفطري ما يجدّد حاضرها ويبني لها مستقبل النماء والتفتح والازدهار. وقد عبر عن ذلك رسول الإنسانية محمد ﷺ أوضح تعبير وأدقه، حين قال[1]: «الحِكمةُ ضالّةُ المُؤمِنِ، حَيثُما وَجَدَها فهُوَ أحَقُّ بِها». يعني أن المسألة النافعة يحبها المؤمن، يتمناها ويحرص على البحث عنها، فإذا وقف عليها عند غيره كان أسرع إلى تقبّلها بالرضا والعمل لأنه أجدر بها وفيها تقرُّب إلى الله تعالى.

فالإنسان الكريم هو يتتبع مصادر التجارب الخيّرة، ويسرع إلى استمداد أسباب النجاح والعمل الطيّب، ليوجّه حياته وحياة إخوانه نحو الصلاح والفلاح. ولهذا أمرنا الله ـ تعالى ـ أن تكون الدعوة إلى دينه القويم بالحكمة والموعظة الحسنة، وكانت روح الإسلام والحضارات تنتقل بين الأمم عفوًا، وبالإرادة الذاتية الخالصة، فتمتصّها النفوس والعيون والآذان والأيدي، وتصبح مِلكًا للعالَم بأسره، ومن ثَمّ

(١) الحديث ذو الرقم ٤١٦٩ في سنن ابن ماجه. وانظر تيسير الوصول إلى جامع الأصول ٣: ١٧٣ والتاج الجامع للأصول ١: ٦٤.

رأينا في أحداث التاريخ البشري ما كان من انتشار العلوم والمعارف والعربية وانتقال آثارها بدون ضغط أو إلزام.

أمّا العَولمة فانحراف في فهم ذلك التاريخ وتشويه كبير لحقائق الحضارة ومعاييرها وجهل بمسيرة منافع الحياة الإنسانية بين الشعوب. ولهذا اضطرب أصحاب هذه المهزلة في التعبير عنها وفي تسميتها وتفسيرها، وضاقت بهم سبل التفكير والتدبر والتصرف، فاعتمدوا على التهديد والوعيد، واستخدموا الإرهاب بالقصف والتدمير والقهر والاستعلاء وابتزاز ضمائر الطواغيت سماسرة القيم والشعوب.

ولهذا أيضًا يختصون بها المسلمين من دون أهل الأرض، ويوجهون عصارة أحقادهم بالعدوان والدمار إلى البلاد الإسلامية التي لا تمشي في الركاب بعبودية وصغار وإلى الشعوب المؤمنة بالتحرر من العبودية لغير الله عز وجل. كل ذلك، وهم يعلمون حق اليقين أن الرسالات الإنسانية كانت تسير في سبل الصلاح التي قبلها مصدِّقة لها ومستعينة بها لتقويمِ الانحراف واستمدادِ مشاعل النور والهداية.

وقد رسخ هذه الحقيقةَ ما أخبرنا به الله ـ سبحانه ـ عن الرسل الكرام ودعواتهم إلى الصلاح، في أكثر من عشر آيات[1]. فما جاء به كل منهم كان يواجِه المخاطَبين ﴿مُصَدِّقًا لِما مَعَهُم﴾، ويتلقّى ما هو عندهم قبله ﴿مُصَدِّقًا لِما بَينَ يَدَيهِ﴾. ثم كان في السُّنّة النبوية الشريفة تحقيق لهذا المعنى الكريم، إذ حُدِّدت معالم الرسالة الإسلامية حصرًا بأنها استمرار للخير والصلاح وتتمة لمسيرة الفلاح بين الأمم ولِما جاء به الرسل والمصلحون والحكماء من أساليب العيش الكريم.

---

(١) الآيات: ٤١ و٩١ و٩٧ من سورة البقرة و٣ و٥٠ من سورة آل عمران و٤٧ من سورة النساء و٤٦ و٤٨ من سورة المائدة و٣١ من سورة فاطر و٣٠ من سورة الأحقاف و٦ من سورة الصف.

وذلك في قوله، عليه السلام: «إنَّما بُعِثتُ لأُتَمِّمَ صالِحَ الأخلاقِ»[1]. ويدخل في هذا كلُّ ما كان من خير وصلاح ودين وفضل ومروءة وإحسان وعدل. فالدعوة الإسلامية هي امتداد وتتويج لِما توالى قبلها من ديانات سماوية متناصرة ودعوات للإيمان والمحبة والتآخي وكل الخير وما عرفه المصلحون من حض على التسامح والنبذ للخصام والترفع عما يثير الأحقاد والبغضاء والشحناء. هكذا تكون أساليب العَولمة السليمة، فتجد لها منافذ في القلوب والبصائر والجوارح، وتغرس المبادئ والأحكام والأخلاق الكريمة، وتجد الانقياد من الشعوب والأمم بطلاقة وطواعية واحترام، وتبقى لها السيادة في الاعتقاد والعمل والسلوك السوي.

أمّا أساليب الغطرسة والاستعلاء والإرهاب بالتدمير والإبادة فليست من الحضارة في شيء، وإنما هي نزوات للقيادة الأمريكية المسعورة وصبوات لرأسها المأفون وأمثاله من رجالات الحُلفاء. فهي نفق سياسي عسكري عدواني لمكاسب اقتصادية وزعامات باطلة، يُنسب إلى مؤسسه ومشيعه في العالم بالقوة والعنف، وأولى به أن يسمى التَّبوِيش، أي: فرض الغطرسة البَوشيّة[2] المعاصرة بالقهر. وهذه

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢: ٣٨١ والجامع الصغير ١: ١٧٧ وصحيح الجامع الصغير ١: ٤٦٤. وانظر الحديث ١٦٣٤ في الموطأ ص ٦٥١ وتنوير الحوالك ٣: ٩٧.

(٢) البوش في العربية يعني الصخب وضجيج الغوغاء، ومنه بالقلب المكاني: الأوباش. والتبويش هو الاضطراب والتناوش واختلاط الأصوات. فلا غرو أن يكون من صاحبه ما يجري الآن في المسرح العالمي من مهازل وعجعجة وبطش رهيب. إنه يتابع تجديد الحروب الصليبية، كما صرّح أكثر من مرة، وينصّب نفسه زعيمًا ليأجوج ومأجوج، في اكتساح العالم وتهديم الكون والحياة، ثم تعبث أيدي الصَّهيَونية بأقواله لتجعله المسيح الدجال، في دعاوى التبشير. انظر خطبة له في الكونغرس ص ١٧ من العدد ٨٣٠٠ لجريدة الخليج، وما جاء مشوهًا منها في الإنترنت بتاريخ ٢٩/ ١/ ٢٠٠٢.

أساليب مكشوفة النِّيَّات والمقاصد وصرخة من صرخات أساطين الاستعمار قبلها، كالحروب التي تلبست باسم الصليب كذبًا وبهتانًا ودعاوى الانتداب والاستعمار والتمدين والتحضير والهلال الخصيب ومبدأ الفراغ والبوليس الدولي، مكتوب عليها الفشل والتلاشي والاضمحلال، مهما اشتد عودها وعلا صراخها وتيسر لها بريق الغلبة والاستعلاء.

ونحن المسلمين لا نستغرب هذه المهازل المستبدة واختصاصَنا بها من دون الأمم والشعوب، مع أن أعداء الحكومة الأمريكية هم منتشرون في أبناء شعبها وفي أصقاع كوبة وكندة وألمانية واليابان وفرنسة وإيطالية وجميع شعوب أوربة وإفريقية وآسية... بل في العالَم كله، ولا نلوم أصحاب هذه المهازل أو نعاتب مؤيّديها والماشين في ركابها بعبودية وهوان من ضعاف القلوب والإيمان، بل نلوم أنفسنا ونعاتب الكُسولَ المتهالك على اللذات ومتاع الدنيا وتناسيَنا للجهاد وما يُعدّ له من قوة وسلاح ورباط في سبيل الله ـ تعالى ـ واعتمادَنا على العدو في انتظار الشفقة والرحمة للإنقاذ من التشرد والدمار والهلاك.

إن واجب الأعداء هو الاستمرار في العدوان والإيذاء لأن الخصومة قديمة وأبدية[1]: ﴿ولا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُم، حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُم، إنِ استَطاعُوا﴾. هذا من الأمور المسلّم بها والمقررة بلا ريب أو جدال، وهي سُنّة الله في خلقه، أن يدفع الناسَ بعضَهم ببعض، ليستعدّ كل بما يحفظ له السلامة والكرامة والسيادة، ويتلقّى العاجزون ألوان المذلة والاستعباد.

وكذلك علمنا النبي ﷺ حين أعلن على الأشهاد مقولته الخالدة: «جُعِلَ رِزقِي

---

(١) الآية ٢١٧ من سورة البقرة.

تَحتَ ظِلِّ رُمحِي، وجُعِلَ الذِّلّةُ والصَّغارُ علَى مَنِ خالَفَ أمرِي»[1]، أي: على مَن رغبَ عن سُنّتي هذه وشأني الذي أنا عليه، من استعداد بالسلاح والعتاد لجهاد المعتدين من الكافرين وردع من تسوّل له نفسه الغدر والخيانة. وبذلك يكون لي دولة إسلامية ذات رزق طيب فيه الكرامة والهناءة والأجر العظيم. ومن خالف ذلك كان له المذلّة والاستخزاء.

ثم إن مهمة الطواغيتِ العبيد المنقادين لمخطّطات العدوّ ونزواته في بلادنا هي مباركتُه وعونُه بالتآمر والقدرات والتصفيق والتهليل والاستزادة من ألوان التهدّد والإرهاب والفتك والدمار، ولن يجدينا شيئًا أن نلوم أو نعاتب لأنهم أَلِفوا أطواق العبودية وقيود الاستسلام ونعِموا بها، وأصبحت لهم تاج اعتزاز وافتخار وسبيل كسب لمتاع الدنيا وشهواتها ووسام حُظوة عند أساطين البغي والعدوان. لقد استمرؤوا القيود والأغلال، وهم يتلذذون بمصاحبتها وما لها من ألوان وأشكال وصليل وقعقعة، فلن يكون منهم سمع أو رشاد[2]:

مَــن يَهُــنْ يَســهُلِ الهَــوانُ علَيــهِ ... مــا لِجُــرحٍ، بِمَيِّــتٍ، إيــلامُ

وإنما تقع المسؤولية علينا، نحن الشعوبَ العربية والإسلامية، لأننا شغلنا عن واجباتنا في الجهاد، وتركنا أمره للجيوش النظامية التي لم تؤسَّس لدفع عدوان أو ردع محتلّ بل لحماية الأنظمة الحاكمة وحفظ أمن دول العصابات اليهودية، ولم نُهيّأ وتزوّد بالقوة والرباط كما أمر الله ورسوله والشرع الحنيف، وانتظرنا من الأمم الأجنبية أن تُنصفنا من العدوان، وتوقف الزحف المهدد بالإبادة والدمار، وتكون

(١) صحيح البخاري ص ١٠٦٧، في باب ما قيل في الرماح من كتاب الجهاد والسير.

(٢) ديوان المتنبي ٤: ٩٤.

لنا عونًا وحماية من الاستعلاء والوحشية، ناسين أن حكومات تلك الأمم هي جزء من المؤامرة الباغية، وأنه من استرعى الذئب فلا يسأل عن الغنم، ومتجاهلين مقولة الشاعر القديم[1]:

ومَن لا يَزَلْ يَستَحمِلُ النّاسَ نَفسَهُ ... ولا يُغنِها، يَومًا مِنَ الدَّهرِ، يُسأَمِ

فقد استمرأت شعوبنا حياة التنعّم والرفاهية، واندفعت تتسابق في حلبة الفاخر من المطاعم والملابس ومظاهر الأُبّهة والترف، وتوجّه كل طاقاتها إلى اللذائذ والشهوات متناسية حقوق الجهاد والرباط في سبيل الله ومعرضة عن دفع المذلة ونُصرة المستغيث ومتجاهلة ما يعانيه المسلمون من العدوان والدمار والبلاء ومكتفية بالنقد والشكوى والدعاء ومدعية أنها عاجزة لتقييدها بسلاسل الأنظمة والاستعمار.

لقد كان آباؤنا من الجيل الماضي كنحن في الحدود والقيود والطغيان، ولكنهم يتناصرون ويدافع بعضهم عن بعض بكتائب المجاهدين والمعونة بكل وسائل الحماية والإنقاذ، شأن الكرام في نصرة الإخوة والجيران وكما رأينا وسمعنا في كثير من مواقف البطولة والفداء. وهذا أمير الشعراء ينقل إلينا تجارب عصره بما فيها من نكبات الاستعمار وعزائم الجهاد وتجاوب وتناصر كريم رغم الأسر والإعنات[2]:

رُبَّ جارٍ تَلَفَّتَتْ مِصرُ، تُولِيـ ... ـهِ سُؤالَ الكَريمِ، عَن جيرانِهْ

قَد قَضى اللهُ أن يُؤَلِّفَنا الجُر ... حُ، وأن نَلتَقي، عَلى أشجانِهْ

كُلَّما أنَّ بالعِراقِ جَريحٌ ... لَمَسَ الشَّرقُ جَنبَهُ، في عُمانِهْ

وعَلَينا، كَما عَلَيكُم، حَديدٌ ... تَتَنَزَّى اللُّيُوثُ، في قُضبانِهْ

---

(١) شعر زهير بن أبي سلمى ص ٢٩.

(٢) الشوقيات ٢: ٢٤٣.

أمّا نحن فقد تركنا واجبات العون والدفاع عن المنكوبين، ورجونا الأعداء مصافحتنا للمسالمة، وربما أيّد بعضنا غزواتهم للأشقّاء في العروبة أو الإسلام، وناصره باللسان والسلاح والرجال، ثم هلل لغلبته وعدوانه. ولهذا كان عندنا فِلَسطين واحدة خذلناها، فصارت بلادنا كلّها فِلَسطينات في طبقات جهنّمِ الخُلفاء، أعلاها تركية تحاول الخلاص بحزم وجهاد، وأدناها في الدرك الأسفل سورية وغزّة والعراق واليمن وليبية. فلا حول ولا قوّة إلّا بالله.

الغزو اللغوي

تسعى الدول الغازية لفرض سلطانها بمحقِ اللغات الوطنية وإذابةِ شخصيات الأمم في متاهاتها، على أن الدعة الإسلامية تأبى ذلك وتقف في وجه من يريد القيام به، لأنها تُـقرّ بوضوح ودقةٍ وجوبَ التمايز والافتراق بين الأمم والشعوب لغةً وأساليب حياة. بل إنها لتعتدّ ذلك نعمة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ تقترن بأعظم النعم، ويجب احترامها والشكر عليها [1]: ﴿ومِن آياتِهِ خَلقُ السَّماواتِ والأرضِ واختِلافُ ألسِنتِكُم وألوانِكُم. إنَّ في ذَلِكَ لَآياتٍ لِلعالِمينَ﴾. وإنما خلقَ اللهُ هذا وأقرّه وأوجب تقديره، ليكون تنوّع وطني وقَبَلي وأُممي وتعاون وتعارف بين البشرية لا خصام ونزاع وقتال. وبذلك يظهر العنصر الطيب من الخبيث: ﴿يا أيُّها النّاسُ، إنّا خَلَقْناكُم مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، وجَعَلْنـاكُم شُعُوبًا وقَبائـلَ لِتَعارَفُوا. إنَّ أكرَمَكُم عِندَ اللهِ أتقاكُم. إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبيرٌ﴾.[2]

فلكلّ أمة خصائصها التاريخية ولكل شعب سماته الشخصية، ولا يجوز العدوان على ذلك، بل له حرمته وتقديره وتنميته وحمايته في رياض الروح الإسلامية العربية

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الروم.

(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات.

العالمية. وهذا ما لا تقره العَـولمة التبويشيّة المستعلية، بل تريد أن تمسح آثاره من الكون بجرّةِ قلم وتهديدِ غزو ومحقٍ من الوجود. ولذلك يكون فرق جوهري كبير آخر بينها وبين الدعوة الإسلامية، إذ تتميز هذه بالتبليغ والإعلام والتعليم والإرشاد للحضارة الروحية: ﴿ادعُ إلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحِكمةِ والمَوعِظَةِ الحَسَنةِ، وجادِلْهُم بالَّتِي هِيَ أحسَنُ﴾، (١) وتصطبغ مخطّطات تلك في فرض مقاصها الوحشية تصطبغ بالذي هو أسوأ: الحديد والنار والهدم والدمار.

وقـد لقيَـتِ العـربيةُ كثـيرًا من الغـزوات الثـقافية العدوانية منذ عصور مديدة، ولكنها كانت تستوعب هجمات الغزاة بإمكانات قاهرة، وتتلقّف ما يأفكون بالحيوية التي منحها الله إياها، وتُحمّل الغزاة أساليبها في الخطاب، أو تردّهم على أعقابهم خاسرين. وأقدم ما نعلمه من ذلك علمَ اليقين هو ما كان من بني إسرائيل حين رجعوا من مصر مع موسى ـ عليه السلام ـ وهم يحملون التوراة بلغة السومريين ممزوجة بلُكنة من لهجة الأقباط العربية، إذ لم يكن لهم لغة خاصّة معروفة، فكان أن سُجّلت التوراة بهذا المزيج اللغوي المركّب، ثم اقتحموا ديار عمالقة العروبة وعاشوا بينهم، فأخذوا عنهم وعن الكنعانيين العرب ما شكّلوا منه ومن قِبطيتهم المستورَدة طُمطمانية آرامية سميت بالعِبرية، إليها تُرجم عهدهم القديم وما كان بعد من التَّلمود. وهذا خلاف ما يزعمه جميع الباحثين والمؤرخين المرجفين.

ثم توالت علينا هجمات اليونان والفرس والروم والهند في حروب أو تجارات ومواصلات، فتركت آثارًا لهجية في رَطانات عوامّ العرب غير العدنانيين، وهي ما يدعى بلغات: بابلية وآرامية وأكّادية وسُريانية وبربرية وحبشية وآشورية وكلدانية

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة النحل.

وفينيقية وكنعانية ونبطية وقبطية وسينائية وبربرية وتركية وسبئية وعمورية وحِمْيَرية ويمانية[1]... إلّا أنها ما استطاعت اختراق حُجب الفصاحة العدنانية ودخول قلب الجزيرة الحصين، فارتدت خائبة يائسة من الظفر، وللعربية تألُّقها في الخطاب شعرًا ونثرًا كما هو ثابت في التاريخ القديم.

وفي ظل الإسلام الحنيف، داهمتنا أمواج الفرس والترك والمغول والتتر، ومعها ثقافاتها ولغاتها، فكان أن احتضنّا الأمم وغرسنا فيها تعاليم الإسلام وأساليب عروبة اللسان بفضل القرآن الكريم وآداب الأُخوة والوئام. وهكذا انتهت تلك الأمواج الغازية بانتكاس العُجمة وانتصار العربية، فصار لها في الشرق والغرب أمم تحبّها وتتعلّمها على أنها وسيلة لعبادة الله عز وجل وللتشبع بتعاليم الإسلام الحنيف.

غير أن القرن الماضي حمل إليها ضربًا جديدًا من الغزو اللغوي المرير، يحمل معه خُططًا لمحق العروبة وترسيخ أعجميات ورَطانات. بدأ ذلك بفرض اللغات الإنكليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والإسبانية والبرتغالية في أقطار العروبة والإسلام، بعد دراسات منهجية للمستشرقين وتخطيط رهيب وإعداد في بضعة قرون. ومِن ثَمَ سار دعاة الطورانية من الاتحاديّين في المخطّط نفسه، لأنهم حملوا على أكتافهم شعارات الفرْنَجة، وتعهّدوا بوأد الإسلام والعربية وبالعبودية للغرب من دون قيد أو شرط وبنصرة اليهود لاحتلال فلسطين، فتابعوا خطوات التتريك والتكفير والتضليل وإثارة نُعَرات الجاهلية. حتى لقد صار تعليم النحو العربي في ديارنا باللغة التركية كما حدثني أحد شيوخنا الماضين.

---

(١) هذه اللهجات هي عاميّة من العربية. أما ما يزعمه المستشرقون وربائبهم من وجود العامية بين العدنانيين في الجاهلية والإسلام فدعوى باطلة وُضعت ليبنى عليها الزعم أن القرآن الكريم كان غير معرب، وفَرَض عليه الإعرابَ القرّاءُ والنحاة.

وبذلك استطاع الغزاة بزعم فرض اللغة الفُصحى إبعادَ العربية عن كثير من الميادين العلمية والسياسية والأدبية، وحصروها في الكتاتيب وبعض المستويات الشرعية المحدودة. ومع ذلك كله لم تستطع المكايد أن تخمد روح عروبة اللسان، فبقيت الشعلة تتألق لتوقُّد لغوي أبدي.

لقد استعملوا في هذا المجال أساليب متعددة، يعرفها التاريخ والدارسون المعاصرون، من تشجيع للغات الأعجمية واللهجات العامّية واقتراح للخط اللاتيني ونشر للآداب المحلية بأساليب الزجل والنبط والتعبير المستغرِب الهجين. ومع كل هذا فقد رفضت الألسنة والنفوس تلك المحاولات، وحافظت العربية على أصولها وأساليبها، فإذا هي من جديد تتناول جميع مستويات الثقافة والتعليم بفصاحتها وبيانها فور التخلص من الجيوش الغازية، لتستعيد لغةُ القرآن الكريم مراكزها في الألسنة والأقلام والأفهام في أمد محدود.

ذلك لأنّ خطًّا جديدًا دخل ميدان الصراع اللغوي بعد ذلك التخلص من ربقة الغزو العسكري، غيّر معالم التاريخ العربي، وجعل فيه انحرفًا خطيرًا قد يهدد ببلاء عظيم. فالعجز عن إدراك الفُصحى المفروضة كيدًا وجهلًا جعل صور الكُره والاحتقار والرفض للغات الغزاة في عهود الاحتلال العسكري تنقلبت في نفوس العرب على أعقابها مَحبة واحترامًا وتقبلًا للعُجمة وتفاخرًا بالطُّمطمانيات والتفرنج في الخطاب والنتاج الأدبي أو العلمي بعد جلاء ظاهري للسياسية والجيوش.

وهـذا هو المظهـر الخطير فـي الغـزو اللغوي للعربيـة. فقد استطاع رجالات الطابـور الخامـس للثقافـات الغربيـة والشـرقية أن يغرسـوا فـي حيـاة العـرب والمسـلمين ما لم تسـتطعه أسـاطيل الدمـار وقرون الاسـتعمار لأنهم تلقـوا العلوم والمعـارف والبعثـات والشـهادات والمكافـآت والمغريـات فـي بـلاد العـدو، أو

تشبعوا بمبادئ الاستعمار وفلسفاته وتوجهاته، وعبدوا شعاراته ومقولاته، واستقدموا المستشرقين وعملاءهم إلى الجامعات والمؤسسات الثقافية والعلمية، ينشرون لألاء الفرنْجة في الألسنة والأفئدة والأنامل، فصار لهم مرتع واسع الأمداء وحقول عامرة بالتأييد والمحبة والانقياد.

ثم كان ما هو أخطر من هذا كله، وهو أن فُرِضت اللغات الأجنبية على جميع التلاميذ في المدارس الإعدادية، بل نزلت أخيرًا إلى المدارس الابتدائية، الأمر الذي يهدد ما يكتسبه أطفالنا من مهارات عربية قبل نضجها وتمكنها، ليخرّب انطباعاتِها الغضة ويحتل مكانها باستعلاء واقتدار. ذلك لأن الخبرة العلاجية إذا دخلت عليها خبرة من جنسها نازعتها في الوجود، وزلزلت مكتسباتها وكان النصر للقوي بسلطانه وجبروته.

وعلى هذا، فبعد أن كنّا نستوعب الغزاة بالعروبة والإيمان، أو نردهم بالهزيمة والعار، صار بين ظهرانَينا سوق رائجة للعُجمة والهُجنة، يدافع عنها بعض المسؤولين في ميادين السياسة والتعليم والثقافة، وينكرون التعريب وسيادة لغة القرآن. وتلك خطة الغاصبين المعتدين، يبلبلون اللغات والقيم، لتشعر الأمم المغلوبة بالعجز والقصور، وتلجأ إلى لغاتهم وقيمهم المستوردة. ولهذا ترى في أوائل القرن الماضي بعض الأدباء قد انصرفوا إلى رثاء عروبة اللسان، والبكاء لِما آلت إليه من تضعضع وتهافت وانتكاس، وكادوا يجاهرون باستجداء الغاصبين.

وهذا لم يكن قاصرًا على أطراف البلاد العربية وحواشيها، بسبب قربها من الأمم الأعجمية، بل لقد غزا العروبة في عُقر دارها وصميم موئلها. أعني قلب الجزيرة شعاب نجد وما حولها من الصحاري والقرى والوديان. وقد لمست ذلك بنفسي حين كنت هنالك في القصيم، فإذا أبناء العربية في كليات الجامعة الإسلامية لغةُ كثير منهم هجينة يغلب عليها العجمة المغرقة في فساد التعبير صوتًا وصيغة

وتركيبًا. وهي وافدة عليهم عن طريق العمالة في التعليم والصناعة والزراعة والتجارة والطب والخدمة والأعمال والخبرة الفنية من أبناء المشرق كالباكستان وبنكلادش وأفغانستان والتايلاند وكورية والهند وكشمير...

وهؤلاء العمّال والخبراء يحملون معهم لهجات من اللغات الشرقية مطعمة باللغة الإنكليزية، أو قل: إنها رَطانات إنكليزية ممسوخة بطوابع اللهجات المحلّية. وقد انتشرت هذه الأساليب الكلامية بين أبناء العروبة في أصقاع الجزيرة العربية لغلبة عناصر العمالة وتسلمها كثيرًا من أزمّة العمل والنشاط، ولا سيما الأعمال المنزلية التي تتصل بتربية الأطفال وتنشئتهم، وتختلط بالأسر في منازلها وحاجاتها الخاصّة والعامّة.

وعندما فوجئت بهذه الانحرافات التعبيرية التي هي خليط من آثار العربية وطغيان تلك الإنكليزية الممسوخة، صارحت طلّابي بالعجب من أمرهم، وقلت لهم: يا بني قيس وتميم وطيئ وأسد، يا أحفاد عدنان وقحطان، لقد كان الأعاجم يختلطون بكم في الماضي فتغرسون في قلوبهم وألسنتهم الفصاحة والبيان. فما لكم اليوم انقلبتم على أعقابكم، وأصبحتم حقلًا لتلك الرَّطانات الوافدة؟ نحن إنما أخذنا عنكم الفصاحة، كما نقلها أبو عمرو بن العلاء والخليل والكسائي... أين تلك العروبة الخالصة؟ فما كان من هؤلاء الطلّاب الأغرار إلّا تقبل الأمر بالمداعبة المرحة، إذ قالوا: أنتم أخذتموها. فما ذَنبنا؟ وأنّى تكون لدينا!

الحياة اللغوية

هذه الوقائع وأمثالها من الانحراف والفساد في ألسنة العرب صادفت عند رجالات التنصير والاستعمار استحسانًا وتحقيقًا لِما رسموه ودعوا إليه ونفذوه. فهم يريدون إزهاق العربية، ولْيَحلّ محلّها ما شاء من لغات أو لهجات أو طُمطمانيات خلائط. وقد صدق ظنهم فانحسرت عروبة اللسان عن كثير من موطنها، وصارت

حبيس بعض المستويات العلمية والأدبية مع أوهام من سياط الأوصياء على العربية، وهاهي ذي تبشر في بعض النفوس بالاضمحلال شأن كل لغة عرفها التاريخ، تنشأ وتنمو وتكتهل وتشيخ ثم تندثر.

ذلك لأنهم يروّجون في البحث العلمي أن اللغة ظاهرة اجتماعية أو منظومة عرفية أو نتاج اجتماعي[1]. وهذا يعني أنها كائن اجتماعي، تجري عليه قوانين الحياة العامة من النشوء إلى الفناء والتلاشي، إذ اندثرت عشرات من اللغات، وما لم يندثر داخله التغييرُ تلو التغيير، فصار شكلًا جديدًا بعيدًا كل البعد عن أصله القديم. وكذلك يجب أن تخضع العربية لهذا الناموس الطبيعي، فتشيخ وتضمحل، أو تتشبّع بالهُجنة حتى تصير خلقًا آخر. هذا ما ينتظره أولئك ويسعون لتحقيقه، وقد بدت بعض مظاهره تبشرهم بالمزيد والنهاية المحتمة.

على أن هؤلاء قد خانهم العلم والتقدير. فاللغة بشكل عام ليست ظاهرة اجتماعية ولا منظومة عرفية ولا نتاجًا اجتماعيًّا، وإنما هي في المفهوم العربي الإسلامي صفة للإنسان لازمة، أي: خِصِّيصَى تكمن في كيانه وخَلقه، كسائر وظائف الحواس والأعضاء وعناصر التكوين، تُخلق في تكوينه قدراتُها وأعضاؤها، وتنمو طاقاتها تبعًا لِما كانت مبرمجة له بيد الله، تعالى. ولهذا عرّفها ابن خلدون[2] بأنها مَلَكة في اللِّسان، يعني أنها قُدرة كامنة بالقوّة، تلازم الإنسان وتكون صفة مميزة له عن سائر المخلوقات، حيثما كان وأنَّى وجد.

(١) لغات العالم ص ٥ واللغة العربية معناها ومبناها ص ٣٤ وعلم اللغة العربية ص ٩ ـ ١٠ ومحاضرات في الألسنية ص ٧١ و٢١ و٢٧ و٢٣١.

(٢) المقدمة ص ١٢٥٢. وقد استفاد سوسير من هذه المقولة في تعريفه للغة، ولكنه أقحمها على غير هدى. انظر ص ١٢ من كتابه: محاضرات في الألسنية العامة.

فهو إنما يعرَّف بأنه حيوان ناطق، وإذا كان في أفراده من يعجز عن النطق والبيان فذلك قصور شخصي عارض كسائر العلل والأمراض وفقْد أعمال بعض الأعضاء لأسباب وأسباب. ثم إن ما يتولد على أفواه البشر سليقة باستخدام تلك الملكة في نطاق العروبة يكون ثروة ربانية متميزة بخصائص الخلود الأبدي كما سنذكر بعد قليل، ويمثّل حياة لغوية بالغة حد الكمال في الاقتدار على النمو والاستمرار في العطاء. إنها لغة القرآن الكريم وحصنه الحصين مع الأبد.

وعندما خُلق أبونا آدم عليه السلام كان يملك القدرات اللغوية كاملة بالقوة والفعل كما هو شأن كل إنسان شابّ سوي، يتمتع بجهاز صوتي ناضج وإمكانات تعبيرية نشطة منجِزة[1]. فقد منحه الله ـ تعالى ـ مَلَكة التعبير لتكوين اللغة وتنميتها، أي: علّمه أن يسمّي الأشياء ويعبّر عنها كما قال الجمهور[2] في تفسير الآية الكريمة[3]: ﴿وعَلَّمَ آدَمَ الأسماءَ كُلَّها﴾. يعني: خلق فيه الفِطرة بالاقتدار على ابتكار هذه الوسيلة الإنسانية المتميزة ورعايتها هو ومن بعده في شؤون حياتهم وحياة أبنائهم.

ولذلك تفوّق في الاختبار على الملائكة الكرام، وأدهشهم بما لا يستطيعون في نطاق قدراتهم المحدودة، فصار في ذلك معلّمًا لهم كما قال

---

(١) الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد ص ١٩. وقد ثبت أن في دماغ الإنسان مركزًا خاصًا بالقدرات الكلامية، ينمو معه منذ الطفولة ويحقق ذاته بلا إرادة كالإمكانات المختلفة من دون تدخل للإنسان أو المجتمع إلّا في التوجيه والتنظيم والتقوية. وهو عندي في المفهوم الإسلامي يعمل بتوجيه القلب لِما يُمدّه به من ماء الحياة صافيًا يحيي الجماد، كما تكون أنت أمام الكِنتار والمذياع والتلفاز وفي مقعد السيارة والطائرة... ولو توقّف القلب عن العمل مات ذلك المركز الحصيف.

(٢) البحر المحيط ١: ١٤٦ وتفسير الجلالين الميسر ص ٣٣.

(٣) الآية ٣١ من سورة البقرة.

أبـو حيان، فسـجدوا لأمـر الله ولاحتـرام آدم، وتقبلـوا الهزيمـة والانصيـاع بالرضا والسـجود والعرفـان.

وهذه الحقيقة القرآنية الخالدة تُسـقط ما زعمه الدارسـون مـن تلاميذ الداروينية التطوريـة، إذ يدّعـون أن الإنسـان أمضـى نصـف مليـون سـنة حتـى أدرك النضـج اللغـوي[1]. كذلـك يتصوّرون حياة البشـرية في أخـصّ خصائصهـا، وينطلقون لفهم الملَـكات الإنسـانية ومميزاتها وصفاتهـا، فيجعلونها ظاهرة اجتماعيـة، ويضعون لها مراحل نشـوء وارتقاء ونمو واندثار مسـتعينين بسـمات تقاليد المجتمعـات والنظرية النسـبية في تطور المنظومـات العُرفية.

وهذا وهمٌ ثان انساق إليه الدارسون لتكوين اللغة وخصائصها. إنهم يضعونها في سلك الظواهر الاجتماعية المتجدّدة، ويطبّقون عليها قوانين تلك الظواهر، وقد يتصوّرونها كالشجرة تنبت ويشتد عودها فيكون لها جذع، ثم تتفرع وتثمر وتتساقط ثمارها وأوراقها وأغصانها ثم تضمحل بجذورها وساقها وما تحمل من أثقال كما يلاحظ في حيوات اللغات الأوروبية وغيرها وما كان لها من أصول بائدة مندثرة، وما يكون فيها مع السنوات من تبدلات ظاهرة أو خفية، تقتضي معاجم تاريخية وقواعد متبدّلة، تحلّ طلاسم الماضي وتقحمات الحاضر والمستقبل.

هكذا يظنون اللغات الإنسانية كلها قياسًا على ما لديهم من لُغيّات متهافتات، ويعممون الحكم بالعَولَمة والتحكم والقهر تجاهلًا لتميُّز هذه الخِصِّيصَى المباركة في لغة القرآن الكريم ولانفصالها عن تلك القوانين البشرية المحدودة.

فقد غاب عنهم أو تجاهلوا أن اللغة تدرس من خلال تاريخها وخصائصها لا

---

(١) اللغة والفكر ص ٤٧ و٥٧ ولغات العالم ص ٥ ـ ٦ والفلسفة اللغوية ص ٢٠٤.

من تعميمات مصطنعة باطلة، وأن ما يتساقط من العربية أصواتًا أو صيغًا أو مفردات أو تراكيب لا يفنى فناء نهائيًا، وإنما يُهمل ويختزن في الذاكرة اللغوية، ليُستعاد حين الحاجة حاضرًا نابضًا بالحيوية والقدرات في أزمان تالية. وهذا قد يتكرّر مرارًا في العنصر اللغوي الواحد خلافًا لِما يذهب من ثمار وأوراق وأغصان أو مفردات وتراكيب أعجمية إذ تحل محله عناصر بديلة، ومُحال أن يعود هو إلى الحياة.

عروبة اللسان خلق رباني عجيب، خصه الله ـ سبحانه ـ بالرعاية والحماية والخلود. وقد سجّل ذلك في محكم كتابه العظيم عندما أبلغنا تحصين القرآن الكريم وصيانته[1]: ﴿ إنّا نحنُ نَزّلنا الذِّكرَ، وإنّا لَهُ لَحافِظُونَ ﴾. وحفظُ النص الرباني يقتضي خلق الأسباب المحقِّقة له، أي: اللغة التي تحمله، والأُمّة التي تحفظه وتبلّغ الناس إياه، والشعب الذي يحمل هذه اللغة بإيمانه وعمله، والدّين الذي يتضمّنه النص الكريم.

تلك خماسية موحَّدة[2] ذات علاقة صميمية كما يدل تأويل النص الرباني العظيم، ولقد منحنا الرحمن إياها، وكلفنا فهمها والعمل لها حق العمل، لنكون حَفَظة لكتابه وللعربية والعروبة والإسلام والمسلمين. ومن هذا المنطلق كنت قد نشرت مقالًا عن العربية منذ سنوات، جعلت عنوانه: لماذا هي خالدة خلود الإنسان؟ وأجبت فيه عن هذا السؤال الكبير بأدلة موضوعية تاريخية واقعية[3].

ليس هذا فحسب، بل هناك حقيقة أكبر منه وأعظم. وهي أن النبي الكريم ﷺ قد

---

(١) الآية ٩ من سورة الحجر. وانظر ص ٢٦٢ من تفسير الجلالين الميسر.

(٢) هي: القرآن الكريم واللغة العربية والإسلام والعرب والمسلمون.

(٣) مجلة الآداب ١: ٦ ـ ١٢ والمهارات اللغوية وعروبة اللسان ص ١٣٧ ـ ١٤٤.

أبلغنا خلود العربية ليوم القيامة أيضًا، إذ قال[1]: «أَحِبُّوا العَرَبَ لِثَلاثٍ: لأنّي عَرَبِيٌّ، والقُرآنَ عَرَبِيٌّ، وكَلامَ أهلِ الجَنّةِ عَرَبِيٌّ». وهذه بشارة نبوية عظيمة، تفسر استعصاء عروبة اللسان على عوادي الدهر ونكبات الأيام وجحافل الغزو والمحق والإبادة بخلاف ما تمثّله اللغات الكثيرة في جنبات التاريخ. إنها خالدة مع وجود الإنسان، ثم تُبعث معه في رحاب الخلد الأبدي.

هذا الذي نؤمن به ونسعى في ضوئه لتحقيق حياة العروبة في اللسان، وإن كان رجالات التنصير والاستعمار وعملاؤهم تداعبهم خيالات من الوهم والأحلام على خلاف ذلك. إنهم يأملون بظنونهم العَولَمية الخاوية أن العربية ظاهرة اجتماعية، تستجيب للضغوط القاهرة فتنزوي وتتلاشى، لتحل محلها لهجات عامية أو لُغيّات مفروضة مستوردة، شأن ما فُرض علينا من أساليب الصناعة والزراعة والتجارة والتربية والتعليم والسياسة والجندية والإعلام والطب والصيدلة وإجراء العمليات الجراحية والطعام والشراب واللباس والأفراح والتعزية وهندسة المدن والمباني وتأثيث المنازل والمؤسسات والمعاهد العلمية بأنظمتها ومصادرها ومقرراتها وتسمية شهاداتها، وكما استمرأنا قوانين الربا والإلحاد والقضاء المستورد وأساليب الحماية والتنظيم للدعارة والقيادة والزنى والتماذي والتقاذي والدِّياثة، واقتبسنا سائر ألوان السلوك والتعامل في المنازل والشوارع والأسواق والمنتديات، حتى التقويم للزمن بسنواته وأشهره وساعاته.

وهم مع هذه الظنون غارقون في الأوهام، يحاولون المستحيل ويصارعون

---

(١) المستدرك ٤: ٨٧ والجامع الصغير ١: ١٧ والدر المنثور ٤: ٧٠. وقد صححه الحاكم والسيوطي، وضعفه بعض العلماء، ثم وجدوا له من الأحاديث والأسانيد ما يعضده ويقويه. انظر تنزيه الشريعة ٢: ٣٠ وكشف الخفاء ١: ٥٥.

أمواجًا ربانية قاهرة، وتثيرهم عقدة النقص فيما لديهم من تخلخل لغاتهم متتابعة، لا تحتفظ بِقِوامها قرنًا واحدًا من الزمن. وإنك لتراهم يتخبطون في مساعيهم، ولَيُغلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلّابِ. فقد استعادت عروبة اللسان أكثر معاقلها في ميادين حياتنا، وتصدرت الألسنة والأقلام والأفهام، ووقفت بحزم أمام هجمات الفرْنَجة والتتريك والتلتين. وهي الآن زاحفة إلى مِنصّات الجامعات والمحافل الدولية، وقد صارت إحدى اللغات العالمية، تزوّد العالَم بوسائل التعبير في كل سبيل، وتغذي العقول بكل حاجات الخطاب والبيان والبحث والتأليف، ولها يوم عيد سنوي يحتفل به المسلمون لأنها لغة القرآن الكريم، والعرب عن ذلك غافلون.

وحسْبك أن تتصفح ما نُشر حتى الآن من مصنفات ومقالات ومحاضرات، في حقول العلوم والآداب والفلسفة والفنون، وفي أمّهات المعاجم المعاصرة، لترى عشرات الألوف من المفردات والتراكيب المحدثة، بجانب ما هو تراثي قديم، تعيش معه في تآلف وتعاون وتمده بالصفاء والعطاء، وتستجيب لحاجات البحث والتحقيق والأدب الرفيع.

وإنه ليتعذر عليك في غالب الأحيان أن تميّز بين الموروث والمولّد أو المتجدّد في التعبير، وترى كِلا العنصرين شقيقين متناصرين في خدمة الفكر والخيال والعاطفة واللسان. وهذا أمر يشدّ أصر الحياة اللغوية، ويحقق لها التوالد والتناسل في وحدة وتكامل واستمرار، على مدى عشرات القرون والعشرات. ونحن لا ندّعي ذلك افتراضًا أو تعاطفًا، وإنما نعتمد فيه على أصالة عروبة اللسان من قديم الزمان.

إننا إزاء لغة القرآن الكريم[1]، وكما أنه في الأرض بقعة مقدّسة هي كعبة الأفئدة

---

(١) انظر مجلة الفكر العربي ٦٠: ٥٣ ـ ٥٤ وتطور مشكلة الفصاحة ص ٣٨ ـ ٤٠.

والأبصار، وفي السَّنة ليلة هي خير من ألف شهر، وفي الخلق كائن مكرَّم سُخِّر لنفعه ما في السماوات والأرض، وفي البشر قدّيسون صالحون ومَن اختارهم الله ـ سبحانه ـ ليحملوا رسالات السماء، وفي عالم المعارف كتب أنزلها الرحمن ـ تعالى ـ لتكون هداية وبشرى للناس، وفي الأنسجة والخلايا ما هو راقٍ عليٌّ يميز الإنسان من الحيوان والنبات والجماد، وفي الناس كريم نبيل، وفي السلوك سويّ ومحرف... ففي وسائل التعبير العالمية لغة كرّمها المولى عز وجل وحمّلها خاتمة رسالات الهداية والإنقاذ من أحابيل شياطين الإنس والجانّ، فكانت اللغة الإسلامية وحروفها حروفًا إسلامية كما يذكر أصحابها من غير العرب وأبناؤها عن ذلك زاهلون.

تاريخ العربية

لقد حاول المستشرقون رجال التنصير والاستعمار تقزيم لغة العرب، فزعموا أن ما يعرف من تاريخها الحقيقي لا يتقدم مطالع القرن الثالث الميلادي، وظاهَرَهم في ذلك من تتلمذ على أيديهم في معهد أو جامعة أو كتاب[1]، ثم استطال هذه المُدّةَ بعض المتأخّرين، فجعلوا البِعثة النبوية تاريخًا لِما نعرفه من العربية[2]. وقديمًا رُوي عن يونس بن حبيب وآخرين أن إسماعيل ـ عليه السلام ـ هو أوّل من تكلم بالعربية[3].

---

(١) فقه اللغات السامية ص ٢٩ وفي اللهجات العربية ص ٣٣ وفي أصول اللغة والنحو ص ١٨ والعصر الجاهلي ص ١١٨. وانظر معجم متن اللغة ١: ٣٥ـ ٣٦.

(٢) العربية الفصحى ص ٣٠ ولغات العالم ص ٩٦.

(٣) طبقات فحول الشعراء ص ٩ والمزهر ١: ٣٢. وانظر الفهرست ص ٨. وروي ما يتضمن مثل هذا عن النبي ﷺ. المستدرك ٢: ٤٣٩. وروي عنه أيضًا إن إسماعيل هو أول من كتب بالعربية. البيان والتبيين ٣: ٢٩٠ والروض الأنف ١: ١٠. وفي كل هذا أنظار لا نظر واحد.

وكان مصطفى صادق الرافعي[1] قد دفع تاريخ هذا الموضوع إلى ما هو أقدم من ذلك، إذ ردّ العروبة في اللسان إلى عهد حمورابي، أي: أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد. أما جورجي زيدان فقد أرجع ذلك إلى ما قبل التاريخ، من دون بيان[2]. والمؤرخون القدماء من العرب والمسلمين يرون أن العربية كانت لغة آدم عليه السلام، تكلم بها وأتقن خطها، وقد يتأخرون بها فيجعلون يعرب بن قحطان أول ناطق بها[3].

والحق أن هذا أمر غيبي، لا يصح الحكم فيه إلّا بدليل موضوعي موثق: نصّ من القرآن الكريم أو الحديث الصحيح، أو قول علمي، أو برهان واقعي قاطع. فرجال الاستشراق غايتهم في حروبهم الحاقدة توهين تاريخ اللسان العربي، ليظهر تفوق سائر اللغات عليه، وتكون العِبرية هي أقدم اللغات[4]، فيصبح لساننا وليدًا لها تابعًا في تكوينه ونموّه واضطرابه أو فنائه. وهذا من مقاصدهم في الحروب الفكرية والنفسية التي شنوها على الإسلام والمسلمين. أمّا العلماء الآخرون فألقوا أحكامًا شخصية طارئة، ليس لها سند معتبر.

ونحن إذا بحثنا عن الدليل الموضوعي الموثق كان لدينا في كلام الله عز وجل نصوص متعددة، وهي تنقل إلى العالم كله حقيقة قديمة ثابتة، أن إرم ذاتَ العماد وأبناء قبائلها من مثل عاد وثمود قوم هود وصالح كانوا يحاجّون أنبياءهم ويجادلونهم بما لديهم من التعبير المألوف والبصيرة في التفكير والاستدلال.

---

(١) تاريخ آداب العرب ١: ٦٨.

(٢) الفلسفة اللغوية ص ٢٠٨.

(٣) الصاحبي في فقه اللغة ص ٣١ ـ ٣٥ ورسالة الغفران ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ والصحاح واللسان والتاج (عرب) والمزهر ١: ٣٠ ـ ٣١ والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٨: ٥٣٧ ـ ٥٣٨.

(٤) انظر تاريخ اللغات السامية ص ٦.

والعلماء مجمعون على أن تلك القبائل هي العرب العَرَبانيّة العاربة، وأنها كانت مع شقائقها من القبائل متعدّدة منتشرة في الجزيرة العربية شمالًا وجنوبًا، وأن ما يروى لها من كلام في شعر أو نثر لا يوثق به رغم أصالتها العربية[1].

وإرم هذه على اختلاف النسّابين بما لديهم من افتراءات هي أصل تلك القبائل، وتُعَدّ في الجيل الأوّل من ذرية نوح عليه السلام، أي: كانت في عهده عقب الطوفان أو بعده بقليل.

هذا أوثق ما عرفه التاريخ للعربية والعرب، وإن كانت عروبة أسماء: آدم وحوّاء وقابيل وهابيل وودّ ويغوث ويعوق ونسر... تُشعِرُ بما هو أعرق. ولقد بقيت آثار عاد وثمود في مواطنها حتى الآن، وهي أقدم الآثار التي عُرف أصحابها باليقين، تراها في مواطنها من شمالي غرب الجزيرة العربية وجنوبيها، وفي بعضها كتابات بالخط المِسماري وأُخرى بالمُسنَد[2]، وكان المسلمون في العهد الأموي يزورون قبور عاد، ويلتقطون منها مَصاغًا من الحليّ والحجر الكريم[3].

ولما نزل النبي ﷺ في غزوة تبوك بمواطن ثمود من الحِجر أمر أصحابه ألّا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها. فقالوا: قد عجنّا منها واستقَينا. فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين، أو يَعلفوا الإبل إياه، ويُهَريقوا ذلك الماء. وكان عندما مرّ

---

(١) لباب التأويل في معالم التنزيل ٢: ٢٥٤ وتفسير القرآن العظيم ٢: ٢١٧ والجامع لأحكام القرآن ٧: ٢٣٨ والمحرر الوجيز ٢: ٤٢٠ والبحر المحيط ٤: ٣٢٣ وتفسير روح المعاني ٨: ٢٤١ وأخبار عبيد بن شرية ص ٣٧٠ ـ ٣٩٦ وتاريخ أبي الفداء ١: ١٠٤ وصبح الأعشى ١: ٣١٣ ونهاية الأرب ٢: ٢٩٢ والصحاح واللسان والتاج (ثمد).

(٢) قصص الأنبياء ص ٥١ وخط الجزم ابن الخط المسند ص ٢٧.

(٣) كتاب الألفاظ ص ٤٨٩ وتهذيب الألفاظ ص ٦٥٨.

بتلك البقاع في سبيله قد قال لأصحابه: «لا تَدخُلُوا مَساكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أنفُسَهمُ، إلّا أن تَكُونُوا باكِينَ، أن يُصِيبَكُم مِثلُ ما أصابَهُم»[١].

هذه حقائق واقعية ثابتة، يطمئن إليها البحث العلمي في تاريخ عروبة اللسان. وقد خصّها ابن النديم بذكر متميز، موثّقًا ومطمئنًا عن محمد بن إسحاق، الذي روى عن الثقة: أن الكلام العربي هو بلغة حِمْيَر وطَسم وجَديس وإرَم وحَويل، وهم العرب العاربة[٢]. وإنما سميت تلك الجماعات ـ وهي في قبائل وأمم لا يعلم عددها إلّا الله ـ عربًا لأنها من خُلّص الفصاحة والبيان، إذ لفظ عَرَب هو مصدر للفعل: عَرِبَ، أي: فَصُحَ وكان عَرَبيَّ اللسان. ولذلك قيل عن تلك القبائل والأمم: عاربةٌ وعَرباءُ، بخلاف ما كان بعدها من المتعرّبة والمستعربة[٣].

ولقد قال ابن عباس: «ما أنزل الله عز وجل من السماء كتابًا إلّا بالعَرَبانيّة[٤]. وكان جبريل ـ عليه السلام ـ يترجم لكلّ نبيّ بلسان قومه». وهذا يعني أن العربية أقدم من ذلك بكثير، وبها سُجّلت الكتب السماوية أيضًا، ثم تُرجمت إلى لغة الأقوام التي نزلت إليهم من غير العرب، ثم كُتب على العربية أن يكون لها حضور في الأرض بما عرفنا من النص القرآني الكريم.

---

(١) الأحاديث ٣١٩٨ ـ ٣٢٠١ في صحيح البخاري ص ١٢٣٦ ـ ١٢٣٧ وفتح الباري ٦: ٤٦٦ ـ ٤٧٠ وعمدة القاري ١٣: ١١ ـ ١٢.

(٢) الفهرست ص ٨.

(٣) الصحاح واللسان والتاج (عرب) والمزهر ١: ٣١ ـ ٣٣.

(٤) أي: العربية الفصحى جدًّا. انظر كتاب اللغات في القرآن لابن عباس ص ١٦. وقد صحف الناشر هذا التركيب كما يلي: بالعبرانية، مع أن ما ذكره عن الأصل المخطوط شبيه بما ذكرنا. وهذا منه جهل فاحش وتشويه يفسد الحقائق والتاريخ ويهوّد العالَم كله بغباء فظيع. انظر البحر ٥: ٤٠٥ والدر المنثور ٤: ٧٠ وروح المعاني ١٣: ٢٦٨.

وقد توالت النِّقم الربّانية على بعض قبائل العرب العاربة لِما كانت عليه من الكفر والجحود والمكابرة، فدمرت ديارها وأفنت الرجال والنساء والذراريّ إلّا مَن آمن بهود وصالح وأمثالهما، أنجاهم الله مع الأنبياء برحمته وقدرته[1]، فساحوا في البلاد العربية يستوطنون المدن والوديان والمراعي، وكانت سلالاتهم في تفرق وشتات[2].

نزل بعضهم في اليمن، ليقيم دولة مديدة جدّها يعرب بن قحطان بممالك ذات حضارة ولغة وعمران للحِمْيَريين والمعينيين والسبئيين والثموديين، وآخرون كالعماليق توجّهوا نحو الشمال الغربي «مصر» فكان لهم مملكة الرعاة «الهكسوس» قبلَ الفراعنة وفي عهدهم وبعدهم أيضًا على الأقباط العرب، ومنهم مَن هاجر إلى شماليّ إفريقية وشرقيّها ليكون منهم وممن هناك البربر والجعزيون الذين اختلط بهم الأحباش، وآخرون وهم سلالة مَدْيَنٍ وإخوتِه أبناءِ إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأمُّهم العربية قَنطورَى بنت قنطور، توجّهوا إلى الشمال الشرقي فكان منهم ترك خراسان، وآخرون استوطنوا الحجاز ونجدًا بما فيهما من المدن والصحاري والوديان والجبال لتترعرع أكثر أجيال العدنانيين، وآخرون استوطنوا

---

(١) هذا خلاف ما زعمه بعض المؤرخين، إذ ادّعوا أن تلك الأمم لم يكن لها باقية، ونسوا ما ورد في القرآن الكريم من نجاة المؤمنين كلّما وقعت نكبات الكفر والإلحاد. انظر جمهرة أنساب العرب ص ٨ ـ ٩ والآيات: ٢٢ و٢٣ من سورة المائدة و٧٢ و٨٣ من سورة الأعراف و١٠٣ من سورة يونس و١١٦ من سورة هود و٥٧ من سورة النمل و٩ من سورة الأنبياء.

(٢) مروج الذهب ٢: ١١٠ ـ ١٢٠ وتاريخ العبر ١: ٤٢ ـ ١٢٧ و٥٠٥ ـ ٦٩٩ ودائرة معارف القرن العشرين ٦: ٢٢٥ ـ ٢٤٨ وتفسير الجلالين الميسر ص ٢٣١ والأجزاء الأُول من تاريخ الجنس العربي لعزة دروزة.

اليمامة والبحرين والطائف، وآخرون توزّعوا في بلاد الشام والعراق، ليتألف من مجموعهم الآراميون، أي: الإرَميون[1]. وهم: الآكّاديون من الآشور والبابلية والسُّريان متغلبين على الشعب السومري، والتدمريون والأنباط والفينيقيون والعماليق والكنعانيون والمؤابيون واللحيانيون والصفويون...

ولأن الذين شرقوا وغربوا وأيمنوا خالطوا الأعاجم من سلالات الفرس واليونان والروم والهنود وشعوب إفريقية السوداء، ولأنهم صادفوا ظروفًا وحاجات وأجواء مختلفة ومنهم من تنصّر أو تهوّد أو تمجّس، تأثرت ألسنتهم العربية بلغات تلك الأمم والظروف والحاجات والأجواء في صور متباينة، فكان لكل منهم لهجة تخالف في الظاهر كثيرًا من لهجات الآخرين واللغة العدانية. وهي في الحقيقة لُغيّات عربية عاميّة كالتي نحن عليها الآن في حياتنا اليومية من الخليج إلى المحيط، خليط من أصول عربية منحرفة ملحونة، ممزوجة بصور صوتية مشوهة.

العرنانية

إن تلك اللُّغيّات بُنيّات هجينة، وبرغم ما فيها وما بينها وبين عروبة اللسان من ظواهر خلافية في بعض الأصوات والصيغ والتراكيب، تلتقي في ظواهر مشتركة كثيرة وترجع إلى نسب واحد قبل تمايزها هو لغة القرآن الكريم. وقد جمع بعض المعاصرين تلك الظواهر فجعله ذلك يطلق على لهجاتها اسم العروبية، ليسد باب اختلاق أنساب لها مصطنعة. فلا يهولنك ما فيها من الرَّطانة

(١) الحق أن كلمات: إرَم وآرام وعَرَب، هي ذات أصل واحد في اللفظ، كان فيها تبادل صوتي: بين الهمزة والعين، وهما حرفان حلقيان يكون البدل بينهما ـ فقه اللغة السامية ص ٤٨ وتاريخ اللغات السامية ص ٢٩٠ والمعرب ص ٢٨٠ ـ وبين الميم والباء، وهما حرفان فمويان يكون بينهما تبادل أيضًا. القلب والإبدال ص ١٠ ـ ١٧. وبهذا صار اللفظ بالعين والراء والباء، كما وصل إلينا أخيرًا، للدلالة على الأمة ذات اللغة الفصحى. انظر معجم متن اللغة ١ : ٣٤ ـ ٣٥.

والطُّمطمانيـة، لتذهـبَ بـك الظنـون والافتراضـات الوهميـة مذاهب المستشـرقين والمستغربين.

ولعلك تستأنس في هذا بما كان من أبي عمرٍو بن العلاء حينما تحدّث عن لهجات يمانية، وهي أقرب تلك اللُّغيّات إلى فصاحة العدنانيين، فقال[1]: «ما لِسانُ حِمْيَرَ وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيّتُهم بعربيّتِنا». فهو في عبارته هذه، على الرغم من انتقاصه تلك الظواهر اللغوية وتفريقه بينها وبين لغة القرآن الكريم، يعترف بأنها عربية لا يجوز إخراجها من نطاق العروبة. وكذلك يقال في الحضرمية التي عُرفتْ بين اللغويين[2] رمزًا إلى الانحراف اللغوي وفي سائر اللهجات المحلية العامّية التي ذكرنا قبل.

فقد تعرّض بعض العلماء في اللغة والنحو والتفسير لمجموعة من مفردات القرآن وغيره واختلفوا فيها. فمنهم من نسبها إلى[3]: النَّبَطية والسُّريانية والحبشية والقِبطية والبربرية والحَورانية، حاملين في أنفسهم ما يعتقده أبو عمرو. ولذلك وصفوها بأنها من غير لغة العرب، وأنها نُقلت بالتعريب إلى لغة العدنانيين فصارت من كلامهم الأصيل، وكان لدى العلماء اختلاف كبير في تلك النِّسب المتفرقة.

وقـد اسـتغلّ رجـال التنصيـر والاسـتعمار هـذه الظواهـر الخلافيـة، وأضافوا إليهـا ظواهـر لفظية متعـددة، فاختلقوا ما سُـمِّيَ باللغات السـامية، وزعمـوا أن تلك اللهجـات هـي مـن هاتيـك اللغـة المختلقـة، وليسـت مـن العربيـة فـي مـكان، ثم

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ١١. وانظر الخصائص ١: ٣٨٦.

(٢) انظر اللسان والتاج (حضرم).

(٣) البرهان في علوم القرآن ١: ٢٨٦ ـ ٢٩٠ والإتقان ١: ٢٨٨ ـ ٢٩٨ والصاحبي ص ٥٩.

افترضوا لها مع العدنانية أقسامًا: غربية وشرقية وشمالية وجنوبية، ولكل قسم فروعًا تُوهِمُ التمايز الكبير(١).

وقد جرى على ذلك أنصار الاستشراق من مستغربين ومتعبّدين بالمخطّطات المشبوهة بغير بحث أو تحقيق، أو من متهيّبين أن يخالفوا شيوخهم، فانطلقوا يُشيعونه في الكتب والمحاضرات والمقالات والمؤتمرات في بلاد العرب، ويجمعون له المؤيّدات الوهمية من أدلة مصطنعة وأمثلة ملفّقة، حتى صار في الأذهان والأقلام والأفهام حقيقة أو كالحقيقة تقرّر في كل مجلس ونتاج لغوي أو حضاري. وإذا عارضتَها اتُّهمتَ بالخروج على المقررات الموضوعية العالمية.

والواقع أن ما ذكرناه من خلاف العلماء في بعض المفردات أمر فيه نظر، يفسره تاريخ العروبة كما ذكرناه قبل. فالفئات التي اختُلف في نسبة المفردات إليها هي قبائل ومجموعات عربية، تفرّقت في مواطن متعدّدة ومعها لغتها الأمّ، ثم امتزجت بشعوب أعجمية مجاورة أو مشاركة في الإقامة، فكان لديها انحراف في الصياغة أو اللفظ مع بقاء أثارة من الأصالة، وبقيت العدنانية تحملها خالصةَ العروبة. وعندما لوحظ التشابه بين لفظ هؤلاء لتلك المفردات ولفظ بعض تلك الفئات توهّم فريق من العلماء أنها معرّبة، وكان بينهم ما هو معروف من الرجم بالغيب وافتراض الأحكام.

حتى إن أسماء الأنبياء القدماء: كآدم وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وداوُد وسليمان ـ عليهم السلام ـ كانت تتردّد في كلام الجاهليين من شعر ونثر، صافية رائقة وبصيغ مختلفة أحيانًا، تصل إلى حد التصرف بالحذف والإبدال والتفنن في القول. وكذلك شأن الحكم على ما نُسب إلى الرومية أو

---

(١) تاريخ اللغات السامية ص ٢٠ ودراسات في فقه اللغة ص ٧١ والوجيز في فقه اللغة ص ٧٤ ـ ١٠٣.

الهندية أو الفارسية من مفردات مع فارق يسير، هو كما قال ابن عباس: إنما اتفق فيها توارد اللغات، فتكلمت بها العرب والأمم الأُخرى بلفظ واحد[1]. ولذلك خفي أمرها على الأكابر الجلّة من العلماء. ولمّا كانت العربية أقدم تلك اللغات فهي أحقّ بالنسب والجنسية.

وقد تعرضّ الإمام الشافعي لهذه المسألة في عروبة القرآن الكريم، وذكر أنه ليس فيه شيء إلّا بلسان العرب، وأن من قال غيرَ ذلك فهو يصدر عن تقليد بدون حُجّة، وأن لسان العرب واسع بحيث لا يحيط بعلمه غيرُ نبي، شأن السُّنّة النبوية لا يحيط بعلمها أحد، ولكن مع هذا فإنه لا يذهب منه ومنها شيء على كلّ العلماء، ولا بد أن يكون فيهم من يعرف تلك الشذراتِ البعيدةَ الأمداء[2]. وقال أبو عُبيدة[3]: أُنزل القرآن بلسان عربي مُبين، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول. وقد يوافق اللفظُ اللفظَ ويقاربه ومعناهما واحد، وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها...

كذلك كان شأن لغة الإرَمِيِّين المتفرقين في الشرق والغرب. أما جمهور بني عدنان فقد استقرّوا في قلب الجزيرة العربية، بعيدين عن مخالطة الأمم الأُخرى، فكانوا ينمّون فصاحتهم بروح العروبة في كل ميدان ومناسبة وتجربة، ويصقلون ألسنتهم بالبيان المتنامي القويم. وبذلك أصبح لهم تميز واختصاص في اللسان العربي الأصيل، وتطلُّع أبدي إلى الفصاحة والبيان، مما جعل بين بعض القبائل هذه خلافات طفيفة، وهيأ لهجاتهم لاستيعاب النظم الكريم لفظًا وغاية، فنزلت آيات الله

(١) الإتقان ١: ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٢) الرسالة ص ٤١ ـ ٤٢ والتاج ١: ٦.

(٣) مجاز القرآن ص ١٧ ـ ١٨. وانظر الصاحبي ص ٥٩ ـ ٦٠ والمعرب ص ٤ والبرهان ١: ٢٨٧ ـ ٢٨٨ والإتقان ١: ٢٨٨.

ـ تعالى ـ باللسان العَرَبانيّ المبين، وفيه من بعض هذه اللهجات عدد وافر، يتوّج تلك البلاغة ويضع لها الحصن الحصين، والسبيل القويم للتفتح والنماء إلى الأبد.

وقبل ذلك كانت نكبة سيل العرم، وانسياح القبائل اليمنية وتفرقها في إمارات وطوائف: المناذرة والغساسنة في العراق والشام، والأوس والخزرج في يثرب وما حولها، وطيئ وكندة ومن لف لِفّهما في نجد والجبال والصحاري المجاورة... يعيشون بين العدنانيين بعيدين عن الاختلاط بالأعاجم، فلزم أكثرهم الفصاحة والبيان، وصارت لُغيّاتهم من شقائق العربية العدنانية. بل إن بعض ذرية هارون عليه السلام، وهم من بني يعقوب الُومريّين اليهود الذين هجروا مواطنهم بالفتن والاقتتال، ألجأهم العرب الفصحاء ليقيموا حول يثرب، وجاوروهم بإكرام واحترام، فكان لهم لغة فنية عدنانية يصوغون بها الشعر والنثر والحوار اليومي في الشوارع والأسواق والمحافل.

السومريين

ثم جاء الوحي الكريم باللسان العربانيّ المبين، فضم شتات تلك اللُّغيات المتشعبة، وجمع أطراف البيان من جميع اللهجات في بؤرة ربانية، تتوج لغة الإعجاز والخلود، وتخاطب الجميع بلسان موحّد للشعب العربي والأمة الإسلامية في بقاع العالم مع الأبد. وبهذا تلملمت قبائل العروبة ومن لف لِفّها تحت راية بيانية متميزة، تزيل استطالات الفرقة والخلاف، وتنمي الوحدة والاتفاق في الخطاب الأدبي والعلمي، وإن كان للخطاب اليومي بعض صور من ماضي المفردات الفصيحة الخاصة.

واستطاعت هذه الغرسة الطيبة أن تتجاوز كل الهجمات اللغوية المعادية، وتخرج منها بالصفاء والنماء، لتتخلص من ربقة الفارسية والمغولية والتركية والفرنسية والإنكليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والروسية... كما ذكرنا في ثنايا الغزو اللغوي قبل.

ولو أنك راقبت أوضاع العربية في مواطن شعبها منذ خمسين سنة، وعارضت ذلك بما هي عليه الآن، لتحقق لديك ما زعمناه هنا. فالخلافات الكثيرة في الأصوات والصيغ والألفاظ والتعابير تنحسر عن الوجه المشرق للعروبة، وتغيب مع مرور الأيام مظاهر العُجمة والمحلّية، ليظهر في مكانها ما هو أقرب إلى الوحدة والانسجام، حتى في صفوف العامّة من هذا الشعب الكريم.

ألست ترى أن عامّية جدّي وجدّك ليست كعامّيتي وعامّيتك؟ أوَليس فيما نتداوله اليوم للتعبير من المحيط إلى الخليج، على رغم التضعضع والشتات وطغيان المحلّيات، واقعٌ يبشّر بالسلامة والبعد عن الاضمحلال؟ فإن كنت في شك من هذا فارجع إلى المسرحيات والحكايات الشعبية منذ بضعة عقود، واستعرض بنيانها اللغوي، تجد الصحوة المباركة الآن، وإشراق التفاؤل يلتمع في نفسك. لقد دبّت الحياة فيما أريد له الممات، وآن له أن يستعيد النشاط والحيوية والنماء[1].

القُدُرات الذاتية

تلك الصحَوات المعروفة في تاريخ العربية لها مقوّمات في تكوين هذه اللغة الحبيب، حفظت لها وجهها الوضاح، وخرجت بها من جميع النكبات والغزوات أصيلة معافاة، تتطلع إلى المستقبل الأبدي بنظرة المتفائل المطمئن السعيد. فقد اختار المولى ـ عز وجل ـ هذه الشجرة الطيبة لتكون لسان أمة تحمل عبء الدعوة الإسلامية الخالدة، وزوّدها بالقُدُرات الخارقة لنواميس الأحياء من المخلوقات بحيث تلازم مِنصّتها في أداء النظم القرآني والرسالة الخاتمة للدعوات السماوية الماضية.

وهذا يقتضي أن تحمل عروبةُ اللسان بين جوانحها خفقات ربانية، تمدها

---

(١) انظر المهارات اللغوية وعروبة اللسان ص ٢٩ ـ ٣٢.

بأنساغ التجدد والتنامي، كلما صادفت حاجاتٍ إنسانية لأبنائها أو صادمت هجماتِ العنف والعدوان من جهل أو غطرسة أو غزو أو افتئات. وبذلك استطاعت الصمود منذ عشرات القرون والعشرات، وتلقّفت كل مظاهر التحريف والتغريب والتشتيت، ثم استوعبت كثيرًا من الشعوب الأعجمية، وفتنتهم بجمالها الأخّاذ وقُدُراتها الغلّابة، وضمّتهم إلى صميم شعبها، لتزول عنها صبغة العنصرية ومسالب النُّعَرات القومية، ويتحقّق فيها ما بشّر به النبي ﷺ فيما رُوِي عنه من القول: «إنَّ العَرَبِيّةَ لَيسَتْ بأبٍ والِدٍ،[1] لكِنَّها لِسانٌ ناطِقٌ».

ولقد حار أصحاب اللغات المتقلبة مع السنوات والعقود، حاروا في تحليل هذه الحقيقة الدامغة ومعرفة الوصول إلى مفاتيح طِلّمسها وأسرار سحرها. فلجؤوا إلى التآمر والدسائس والعنف والتحكم، وما كان لهم إلّا الهزيمة تلو الهزيمة، وهم يجرّون أذيال الخيبة والخذلان. والحقّ أنه لا طِلّسم ولا سحر، وإنما هي إرادة الله ـ تعالى ـ وتقديره لهذه المخلوقة الشريفة أن تستبدّ بالأصالة والاستمرار والأبدية، وتستعصي على عوامل الفناء والاندثار وتتحدّى كل تسلّط إنساني أو حيوي.

فالحكمة القدسية واللطف الرباني أحاطا هذه النبتة اللسانية الغالية بسياج من الإمكانات الصميمية، تحفظ لها صفاءها وقدرتها على استيعاب الماضي والحاضر والمستقبل النهائي. ومن ثَمّ كانت لها خِصِّيصَى تتميّز بها عن سائر لغات العالم. فهي ذات خليقة محافِظة ترفض الجسم الدخيل إذا لم يوافق نسيجها ومكوناته الأصلية والفرعية، وهي مع هذه المحافظة تتملّك الطاقات الكفيلة بالنمو الداخلي ضمن حدود قواعدها الراسخة والأصول العملية للإجراء والاستعمال.

---

(١) معجم مقاييس العربية ٤: ٣٠١. وفي المطبوعة: «بابًا واحدًا» بخلاف ما كان في الأصل المخطوط.

وقد ألهم الله ـ جلت قدرته ـ نوابغ العلماء من المسلمين عربًا بالنَّسب أو عربًا بالقلب واللسان، ألهمهم أن يكتشفوا أركان ذلك السياج، ويوّضحوا معالمها وأبعادها وأعماقها ودقائقها لتكون نِبراسًا للأجيال القادمة، يستهدون به السبيل في التعبير عن الفكر والتجربة والعاطفة والخيال، من دون تسقُّط أكفّ الأمم الغازية أو المعادية. وهانحن أولاء نجمع تحت العناوين التالية شتات ما نثره الأفذاذ من القُدُرات الذاتية في بُنية عروبة اللسان:

١ ـ القدرة اللفظية:

تمتلك العربية منذ القدم وسائل التوسع اللفظي، بتوليد مفردات يتعذّر حصرها وتصوُّر مداها. وذلك في قيامها على أصول حرفية تتكون منها الألفاظ المستعملة، وتفتح الأبواب لبناء ما يحتاج إليه العربي في الحاضر والمستقبل عن طريق قنوات من التبادل الموقعي للحروف. وقد استغل قدماء الأمّة هذه الطاقات الغنية المعطاء، وأنتجوا بها ما لا يقدَّر من الثروة اللغوية، بقيت لنا منه أثارة نستضيء بها في حياتنا وحاجاتنا المتجددة.

أمّا المخزون الذي كان مستعملًا قبل التاريخ وفي قرونه المتوالية فالكثير الكثير منه طوته الأيام، وصار في عالم النسيان. قال أبو عمرِو بن العلاء: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلّا أقلُّه. ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير»[1].

وفي هذه السبيل المعبّدة سار العدنانيون ومَن جاورهم من إخوانهم العرب، فكان عندهم زاد واسع الأرجاء، يستمدون منه ما يملأ الحاجات اليومية والفنية

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٢٥ والخصائص ١: ٣٨٦ ـ ٣٨٧ والاقتراح ص ٢٧. والوافر: التام لم ينقص منه شيء.

والعلمية والعملية بالتوليد والصياغة والصقل والتنمية، حتى رأينا ما وصلت إليه العربية في أواخر العصر الجاهلي من قمم البيان.

أمّا القبائل التي خرجت من قلب الجزيرة وتوزعت بجوار الأعاجم فقد داهمها الواقع اللغوي في تلك البقاع، فكان تمازج وتلاقح ولدا ذريات هجينة تفقد مقومات الفصاحة وطاقاتها المتنامية، فماتت فيها تلك القدرات، ولم يبق فيها منها إلّا ذِماء يمد بشيء من الحياة. ولهذا كانت لهجاتهم عامية، تفقد كثيرًا من قسمات العروبة، وتتسم بالانحراف في التصويت والصياغة والتركيب، مما أعطى اليد رجالات الاستشراق ليصنفوا تلك اللهجات في زمرة اللغات الأعجمية، أو ما لقبوه بالسامية.

وإذا نحن تجنبنا اليوم سبل الانحراف العامي هذه، وفتحنا أبواب القنوات التوليدية كما كانت لدى أجدادنا القدماء، استعدنا القدرات الكامنة لعروبة اللسان، وزودنا الحاجات المتجددة بتوليد ما ينقل معانيها ومقاصدها القريبة والبعيدة. وذلك فيما اكتشفه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥)، وبنى عليه معجم «العين» لاستيعاب أمداء العربية في الصياغة والإنجاز، ورسَمَ الخطّة الواقعية لمستقبل حياة اللغة، وعرضه مرارًا وتكرارًا ليذكّر به من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

فقد كان نفذ ببصيرته الحادة وفصاحته المتأصلة وخبرته العلمية وأساليب تفكيره الرياضي إلى صميم التكوين العضوي لبناء اللغة القرآنية، وتبيّن له فيها صرح ضخم شامخ بلا حدود من جميع الجهات، يتطاول ويتمدد بسعة وانطلاق واستعلاء، ليُمد أبناء العروبة بالمخزون اللغوي في كل زمان ومكان. وهذا الصرح ذرّاته هي التسعة والعشرون حرفًا، تتشكل في لِبنات غير متناهية العدد، لتكّون الحُجرات والأبنية والأسوار والمرافق العامة، ثم تتكاثر وتتوالد بشكل هندسي متنام لا تقطع الأيام عليه السبيل.

فالمـادة اللغويـة الأصيلـة التـي يتكـون منهـا اللفظ فيها قـدرات علـى التقلب مـع احتفاظها بطاقات النشـاط والعطـاء في جميع الصـور التي تسـتوعبها إمكانات الاحتمـال الرياضـي. وقـد وضـح الخليـل هـذه الناحيـة فـي خُطبـة كتابـه[1]، بـأن الكلمـة الثنائيـة تتصرف على وجهيـن، نحو: قـدّ ودقّ، والثلاثية تتصرف على سـتة أوجـه، وتسـمى مَسدوسـة، نحـو: ضـرب وضبـر وبـرض وبضر وربـض ورضب، والرباعيـة تتصرف علـى أربعة وعشـرين وجهًا.

وذلك لأن حروفها الأربعة تضرب في وجوه الثلاثي، وهي ستة، فتصير أربعة وعشرين وجهًا، يُكتب مستعملها ويلغى مهملها، نحو: عبقر... والخماسية تتصرف على مائة وعشرين وجهًا، وذلك أن حروفها الخمسة تضرب في وجوه الرباعي، فتصير مائة وعشرين وجهًا، يُستعمل أقلّها ويُلغى أكثرها، نحو: سفرجل...

ثـم اسـتخدم هذه المقـولات النظريـة فيمـا أراده مـن اسـتيعاب كلام العرب، فـكان لديـه أن الـدال والنون والفاء مثـلًا تملك من الطواعية والسـماحة مـا يخوّلها إنجـاز المفـردات كلِّهـا وتَضمُّنَهـا الـدلالات اللازمـة. فهـي تـرد بالصـور السـت المحتملـة، ولـكلّ منها معنـى دلالي منه مـا لا يحصى من الأفعال والأسـماء: دنف ونـدف وفنـد ودفن ونفـد وفـدن. وهي مسـتعملات فيما بقـي من كلام العـرب[2]. أمـا الـذال والـلام ـ وهما اثنـان ـ فيكون منهما بالتقليب شـكلان فحسـب: ذلّ ولذّ. وهما مسـتعملان[3].

---

(١) العين ١: ٥٩ ـ ٦٠. وانظر الخصائص ١: ٦١ ـ ٦٢.

(٢) العين ٨: ٤٨ ـ ٥١.

(٣) المصدر السابق ٨: ١٧٦. وهذا في الثلاثي المجرد، ولم يذكر: ذلذل ولذلذ، لأنه عنده من مضاعف الثنائي. انظر العين ١: ٦٢ ـ ٨٢.

وحين نظر من هذه الزوايا الفاحصة إلى الثروة اللغوية عامة، رأى أنها تخضع للتقلبات المتحقّقة أحيانًا، وتحتمل ذلك في الإنتاج الحقيقي والتجهيز للمستقبل. وذلك لأنه ظهرت من الاستقراء حُجرات غفيرة، ليس لها ما يملؤها من المستعمل في الكلام. فالهاء والطاء والراء يستعمل منها: هطر وهرط وطهر ورهط، أما: طره ورطه، فمهملان[1]. والرباعي والخماسي أكثرهما مهمل أيضًا، والقليل القليل جدًّا هو المستعمل[2].

والمهمل هذا قد يُظن أنه لم يستعمل من قبل، وهو في حيز الإغفال والعدم. وعندي أنه قد يراد به ذلك من دون عدم[3]، لأنه يبقى حاضرًا في المخزون اللغوي

---

(١) نفس المصدر ٤: ١٨.

(٢) المصدر نفسه ٤: ٣٢١ ـ ٣٣٩.

(٣) ذكر ابن جني أن بعض ما أُهمل من الأصول المتصوّرة أو المستعملة أكثره متروك للاستثقال، نحو: سص وظث وضش وقج وجق وكق وهعد وحأذ وألر وودت. وكذلك ما امتنع من التصرف في الثنائي المجرد والخماسي والسداسي أيضًا، إذ فيه من التركيب ما يشق على النفس إخراجه، فتتكلف فيه العناء والمعاناة. الخصائص ١: ٥٤ ـ ٦٤. وانظر العين ١: ٥٢ ـ ٥٦ و٦٠ ـ ٦٢.

وهذا افتراض ذهني يناسب ما نحن عليه من الإمكانات التصويتية، وليس عليه دليل سماعي في تاريخ العروبة، وإنما هو قول استنتجه علماء العربية باستقراء ما وصل إليهم من المفردات. فربما كان قدماء العرب استعملوا تلك الألفاظ العسيرة، وتصرفوا فيما ذكر امتناعهم منه، كما نرى ذلك الآن في لغات الرضّع وأهاليهم وبين بعض العامة وبعض أمم الشرق الأقصى وجنوبي إفريقية وأواسطها والهنود الحمر من مفردات عسيرة النطق جدًّا، يعبر بها في الشدائد والتهكم ووصف المعقد من الأحوال.

وكثيرًا ما تقف في المعاجم العربية الآن على مئات من المفردات الثقيلة اللفظ، أصبحت مهملة في مطاوي النسيان لا تُستعمل في علم أو فن، مع أنها كانت سارية في تعبير أجدادنا الجاهليين والإسلاميين. وهذا يعني أن مدى التصويت لدى أجدادنا كان أوسع وأقدر وأدق. فمن عاشوا قبلهم بعشرات القرون قد يكون لديهم ما هو أبلغ وأبعد.

وجاهزًا للحضور والاستخدام عند الحاجة. وذلك على غرار أن يكون لدى الفرد أو الأسرة أو المدرسة عدد وافر من كتاب أو مقعد أو مصباح، فيُستخدم منه ما هو كاف للحاجات، ويُحفظ المهمل الباقي في الخزائن والمستودعات ليكون بين الأيدي يوم تلجئ الحاجة إليه.

وقد عرض لهذا ابن جنّي (ت ٣٩٢)، مشبِّهًا موقف العرب فيه بمن كان عنده مال كثير جدًّا جدًّا، وأراد إنفاق بعضه، فتناول ما كان قريبًا منه لكفاية حاجته، وترك الباقي لأنه لم يرد استيعاب جميع ما يملك، وهو يرى أنه لو أخذ ما ترك مكان ما تناول لأغنى عنه وأدى غرضه[1].

ثم قد يراد بالمهمل أنه لفظ، كان مستعملًا في القديم، وأُهمل للاستغناء عنه. وهو الذي يقال عنه أحيانًا: المُمات. وكلا الوجهين في تفسير المهمل يعنيان أنه مادة لغوية احتياطية، جاهزة للاستعمال أو الحضور أو الإحياء. وفي استعمال «المُمات» تحقيق لما ذكرنا من تميز العربية عن جميع المخلوقات، في استعادة ما فني من عناصرها نفسه، بردّه إلى الحياة بعد أن اندثر وأصبح في عداد الأموات.

وإنك لترى في صنيع الخليل كما عرضه هو وكما فسره ابن جنّي أن لغة القرآن الكريم تحمل في خِلقة تكوينها حقولًا شاغرة كثيرة، وهي مهيأة للاستخدام وقادرة على تأدية الأغراض المستجدة. فالعربي القديم غني جدًّا بالمادة اللغوية، استخدم بعض ما يقضي حاجاته، وخلّف الباقي لذريته من بعده، تستعين بما يناسب مقتضيات الحياة ومتطلباتها في كل زمان ومكان.

لكأن العربية كانت تنادي أبناءها، وتعرض عليهم ميادين ثروتها الواسعة،

---

(١) الخصائص ١: ٦٥.

تحثهم على استهلاك ما فيها من كنور لا تُستنفد، ثم جاء الخليل وأطلق هذه الميادين العظيمة، مبشّرًا بغنى العربية وقدرتها الذاتية على العطاء الدائم، ومشجّعًا الأجيال على استغلال ذلك بما فيه من طاقات وغَناء.

وهذا الذي صنعه الخليل هنا صادر عن إحاطته بحقائق عروبة اللسان وخصائصها وعن نظراته المستقبلية الشمولية الثاقبة، لبناء حياة لغوية متطلعة إلى التفتح والتجدد والنمو الأبدي. ونظير هذه القفزة المنهجية الفائقة ما ترى له من موقف إزاء موسيقى الشعر. فقد استقرى ما وصل إليه من نصوصه، ورسم الدوائر التي تحتمل النظم، فكان ما بين يديه من الأشعار يشغل حيزًا ضئيلًا من حقول تلك الدوائر. ولذلك أحصى النماذج الواقعية للبحور، ورسم للشعراء السبل العملية لخوض بحور جديدة، تملأ الدوائر العروضية، وهي واسعة جدًّا تزوّد المستقبل بما يولّده وما يفيض عن حاجاته[1].

وكذلك ما صنعه في ميدان الألغاز والمعمَّيات. فقد روي[2] أن ملك اليونان كتب إليه كتابًا باليونانية، فخلا بالكتاب شهرًا حتى فهمه. ولما سئل عما أوصله إلى ذلك قال: قلت: «إنه ل بد له من أن يَفتح الكتاب باسم الله أو ما أشبهه». فبنيت أوّل حروفه على ذلك، فاقتاس لي. فكان هذا الأصلَ الذي عمل له الخليل كتاب: المُعَمَّى.

وأنت إذا أجبت نداء لغة العرب وتشجيع الخليل بما رسم وأوضح في كتابه «العين»، واستعنت بالاحتمالات الرياضية التي عرضها عن المفردات، لتستنفد جميع طاقاتها الكامنة، كان لديك مخزون هائل يتعذّر حصره من الألفاظ القادرة على الحياة تنتظر من يبعثها من مرقدها.

---

(١) القسطاس في علم العروض ص ٢١ ـ ٢٢ وتطور مشكلة الفصاحة ص ٩٩ ـ ١٠٣.

(٢) طبقات النحويين واللغويين ص ٤٧.

وحينما تَعتَدّ الحروف ٢٨[1]، وتستحضر ما يكون للحرف الواحد من تعدد المواقع في الكلمة وما يكون للَّفظ من وجوه احتمال في الضبط[2]، وتُجري ذلك فيما رسمه الخليل من تقاليبَ للَّفظِ وأبنيةٍ للكلمة، يتحصّل عندك من جُداء عدد الحروف في عدد احتمالات الأبنية للمفردات في الاسم ما يلي:

الثلاثي: ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ × ١٢ = ٢٦٣٤٢٤

والرباعي: ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ × ٤٨ = ٢٩٥٠٣٤٨٨

والخماسي: ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ × ١٩٢ = ٣٣٠٤٣٩٠٦٥٦

والمجموع ٣٣٣٤١٥٧٥٦٨، أي: ما يتجاوز مليارات ثلاثة[3]. وإذا أسقطتَ منها ما يتعذر فيه اللفظ لأسباب سياقية تبقَّى لديك ما يزيد على المليارات الثلاثة، من المفردات القادرة على الحيويّة والعطاء.

وهذا خاص بالأسماء المجردة تكون للمعاني الوضعية. ولو تصورتَ ما تحتمله بعد ذلك من دلالات معجمية ومجازية واصطلاحية وفنية، وما يكون فيها من معاني الاشتراك والتضاد والتضمين، وما تتلبسه من صيغ التأنيث والتصغير والنسبة والنحت والتركيب المزجي والتثنية والجموع... لكانت أضعافًا مضاعفة.

---

(١) أُغفل ههنا الألف لأنه لا يكون أصلًا في بناء الأسماء والأفعال. الكتاب ٢: ٢٤٣ـ٢٤٦ والمنصف ١: ١١٨ والممتع الكبير ص ١٨٦.

(٢) احتمال الضبط للثلاثي ١٢ وجهًا، وللرباعي ٤٨، ولخماسي ١٩٢. انظر تصريف الأسماء والأفعال ص ٦٢ـ٦٦.

(٣) مجلة الفكر العربي ٦٠: ٥٤ ـ ٥٥ وتطور مشكلة الفصاحة ص ٤٢. وقيل: إن ما أحصاه الخليل من ذلك هو بضعة عشر مليونًا. المزهر ١: ٧٤ـ٧٥ وكشف الظنون ص ١٤٤٣. والحسبة هذه كما ترى فيها اختلال ظاهر. انظر الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد ص ٣٢ و٢٧٢.

ثـم إذا اعتـددتَ ذلـك فـي الاسـم المزيـد مـن الثلاثـي والرباعـي والخماسـي، مع العلـم أن حـروف الزيادة عشـرة واحتمـال مواقعها وتوزعهـا يتجاوز المئات، صار لديـك جُـداء بعض تلـك الأضعـاف المضاعفة فـي بعض.

وبإجراء مثل هذا في الأفعال الثلاثية والرباعية مع مراعاة أن الفعل لا تكون عينه في الأصل ساكنة، ويتصرف ماضيًا ومضارعًا وأمريًا ومبنيًّا للمجهول، ويكون مجردًا ومزيدًا فيه أيضًا وحقيقيًّا ومجازيًّا ومضمّنًا... بإجراء مثل هذا يجتمع من الأفعال عندك ما يكاد يماثل عدد الأسماء. وإذا أنت أمام مليارات جديدة، تضيفها إلى ما تحصّل من قبل فيكون المجموع أرقام مليارات المليارات أي: ما يكون فيه عشرات الأصفار عن يمين الرقم. وهو أرقام فلكية بالغة حدود ما لا نهاية له مما تضيق اللغة الحسابية والأجهزة الآلية بالتعبير عنه.

والمعروف حتى الآن في المعاجم العربية أن عدد ما يستعمل[1] من المفردات لا يبلغ نصف مليون مهما توسعت فيه. ولا شك أن نسبة هذا الرقم إلى ما كان من أرقام في الاحتمال هي ضعيفة جدًّا، لا تساوي ١ من مليار مليار المليار. وهذا يعني أن ما استخدمه العرب من الثروة اللغوية ضئيل ضئيل ضئيل، ولديهم من الإمكانات لصياغة المفردات ما لو عاشوا مليارَ مليار مليار ما كان لهم قبل لما استطاعوا استنفاد طاقاته وعطائه. ثم تراهم كالأيتام يتكفّفون أيدي اللئام من الأعداء، ليجودوا عليهم بفتات موائدهم وبالات بالاتهم من ألفاظ مبتذلة مستهلكة هجينة، تحمل معها وشم الخِزي والعار.

ونحن ما زلنا حتى الآن نطوف معك في حقول المفردات. فإذا انتقلنا إلى ميادين

---

(١) في المزهر ١: ٧٥ أنه ٥٦٢٠، وفي التاج ١: ٦ جعل ذلك ٥٦٢٠٠٠٠، بإقحام كلمة «ألف» بعد «ألف».

التركيب في التعبير، وعلمنا أن ذلك يقتضي جُداء تلك الأرقام الخيالية في نفسها مرارًا لما في العربية من مراتب الوظيفية والموقعية مع إمكانات التقديم والتأخير والحذف والزيادة للمبالغة والتوكيد بالإضافة إلى ما يكون من أدوات متعددة الوظائف تتخلل العبارة وتتطلب مضاعفة التعداد، إذا انتقلنا إلى تلك الميادين وقفنا أمام عوالم من التراكيب يجهل كل الناس وجميع الأجهزة بيان ما تضمه من الأرقام. ولهذا يقال: حروف اللغة لا تبلغ الثلاثين، وما يتكون منها بالتركيب هو صور لا نهاية لها.

وحسبنا أن نذكر هنا ما أحصاه بعض المتأخرين من العلماء[1]، وهو النماذج التي يحتملها تركيب الصفة المشبهة ومعمولها في نحو «أنت كريم النفس». فقد نظر إلى ذلك من خلال ما يتوارد عليه من إعراب وتعريف وتنكير وإضافة وتأنيث وإفراد وتثنية وجموع... فكان لديه ١٤٤٠٠ نموذج تعبيري. فإن أسقطتَ منها ما قد يمتنع لغويًّا لتعذُّره ـ وهو ١٤٤ نموذج ـ بقي منها ١٤٢٥٦.

وهذه محدودة بتركيب صغير، هو جملة اسمية بسيطة. فكيف إذا نثرت ما تحتمله سائر التراكيب الاسمية والفعلية والشرطية في الحياة ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا؟ لحقٌّ أنه أمر يفوق الخيال، ومثل هذا الخلق الرباني العظيم لا يضعف ولا يبيد، ولو تألّب عليه الثقلانِ: الإنسُ والجانّ.

٢ ـ القدرة المعنوية:

تلك الطاقات اللفظية التي لمسنا جانبًا من مخزونها في صياغة المفردات والتراكيب تتضمن بتكوينها دلالات متعددة الجبهات، وذلك تقدير العزيز العليم.

---

(١) التصريح على التوضيح ٢: ٨٥ ـ ٨٦ ومجلة الفكر العربي ٦٠: ٥٥ وتطور مشكلة الفصاحة ص ٤٢ ـ ٤٣.

فالمفردة العربية شُعاع نابض يعود في أصله المعنوي إلى بؤرة معجمية، تضم سائر الشقائق المشاركة للمفردة في مادّتها اللغوية ونسقها اللفظي، وهذه البؤرة هي الحَدَث النحوي الذي تنتشر طاقاته فيما يصاغ من مفردات تحمل مادته وسياقها سواء أكانت أسماء أم أفعالًا، دون أن يفقد شيئًا من مستواه العملي. وهو الذي يشد أواصر التركيب في التعبير بصلات حميمية قاهرة، ليبني جملًا وعبارات وفِقرًا متساوقة متعاونة في بناء النتاجين الأدبي والعلمي.

وقد كان الفكر العربي في مراحل تاريخه على تفهّم واع للصلات الحميمية هذه، يتنقل بينها بوضوح واقتدار ليصوغ عناصر التركيب، ويستمد لها مقوّماتِ الحيوية والارتباط بالحيّز اللغوي الذي تتولّد منه وشباكَ الوحدة العضوية بين المفردات المكونة للتعبير.

ومع مرور الأعوام والقرون تفتحت أبواب التفكير اللغوي على البحث والتنقيب لكشف تلك العوالم الخفية وسبر أبعادها في النشاط من إنجاز الكلام. ومن خلال ذلك بدت بوارق جهود المصدر الحَدَثي في غرس الدلالات وتكوين الوحدات التركيبية، ثم تابع علماء العربية ذلك، يفتّقون مستغلقاته ويقعّدون توجُّهاته، حتى صار للحَدَث مركزية في البحث لغة وصرفًا وإعرابًا وبيانًا ونقدًا.

وبُعيد منتصف القرن الرابع، شرع أحد العلماء الأفذاذ في اختصاص المصدرية باهتمام بالغ، ليرصد ذلك العالَمَ الغني بنشاطه، ويكتشفَ صورَه في المادة اللغوية وأصولَ تشعبه في المفردات وتوضُّعه في القنوات الرئيسية لكل مجموعة، فيستنبطَ المقاييس لتلك الأصول ويوضح مالها من امتداد واقعي في مخزون لغة القرآن الكريم.

إنه أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥)، صاحب أقدم كتاب في فقه اللغة. وقد ألهمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن طريق البحث والتنقيب أن لهذه اللغة الكريمة في بنائها المعنوي مقاييس صحيحة وأصولًا تتفرّع منها فروع، وأنه لم يصدر عما ألّفه أسلافه ومعاصروه شيء من تلك المقاييس والأصول مع كونها ميدانًا من العلم جليلًا ولها خطر عظيم. ولذلك أخذ على نفسه أن يتقرَّى هذه العناصر الدلالية المغذّية لجمهور المفردات، فحاول في كتاب معجمي خاص أن يكتشف لكل مادة لغوية الأصل المعنوي الذي تتفرّع عنه مسائلها، وترتبط به مفرداتها[١].

فقد تبيّن له مثلًا أن الباء والكاف والراء لها أصل معنوي واحد، يرجع إليه فرعان هما منه[٢]، أقدمها أوّل الشيء وبدؤه، والآخر مشتق منه، والثالث تشبيه. فللأول: التَّبكير والبُكور والابتكار، وللثاني: البَكر والبَكرة من الإبل للفتِيِّين، وللثالث: البَكرة يُستقى عليها مستعارة من بَكرة النوق. وكذلك البَكَراتُ للحِلية في السيف. ثم إن هذا كله، كما قال، أصله واحد.

والجيم والذال والعين ثلاثة أصول: أحدها يدل على حدوث السِّنّ وطراوته، والثاني جِذع الشجرة، والثالث هو الدلك[٣]. وأما السين والراء والدال فأصل مطّرد منقاس، وهو يدل على توالي أشياء كثيرة يتصل بعضها ببعض[٤]. وأما السين والراء فيجمع فروعَهما إخفاء الشيء، وما كان من خالصه ومستقرّه[٥]. وأما الشين والميم

---

(١) معجم مقاييس اللغة ١: ٣.

(٢) المصدر المتقدم ١: ٢٨٧ ـ ٢٩٠.

(٣) المصدر السابق ١: ٤٣٧.

(٤) نفس المصدر ٣: ١٥٧.

(٥) المصدر نفسه ٣: ٦٧.

والراء فأصلان متضادان، يدل أحدهما على تقلص وارتفاع، ويدل الآخر على سحب وإرسال[1].

وهذه نظرية تحليلية تركيبة لقدرة لغة العرب على تكثيف المعاني في مجموعات متمايزة. وقد استطاع ابن فارس بجهوده المباركة أن يكتشف الأصول العامّة للتفكير الإنساني عامّة والعربي خاصّة، وما يتفرّع عن ذلك في قنوات تتشعّب عن تلك الأصول، ثم كان لديه توزيع لتلك المعاني على بؤر لفظية تعبر عنها، وتمدّ بالمفردات اللازمة في إجراءات الصياغة والتركيب.

وبذلك حدّدَ مراكز الدلالات اللغوية والمواد التي تقدّم أساليب التعبير، وبيّنَ ما يكون من اشتراك وافتراق بين تلك المواد في احتجاز الدلالة، وفتحَ مجالات واسعة لاستغلال ذلك في تنمية اللغة بما يستجد من الأحداث والأعمال والتجارب والحاجات.

ولو استغل المعاصرون لنا هذه النظرية الفذّة لاستطاعوا أن يولدوا ألفاظًا، من تلك البؤر المعنوية لملء الفراغ اللغوي في معجم الصناعة والزراعة والتجارة والعلوم والآداب... بعيدًا عن استجداء الرّطانات الأعجمية والمصطلحات الأوربية الشُّوه والتراكيب المستوردة بأصوات وصيغ وسياقات هجينة[2].

يضاف إلى هذا أن ابن فارس لم يستوعب جميع جزئيات المعاني الإنسانية المحتملة، ولم يدَّع أنه استنفد كل ما يخطر على البال، بل إن المهمة التي نصب نفسه لها عجز عن استيفائها بإقرار منه. وقد اعتذر من ذلك في ختام كتابه بقوله: «ذكرنا ما

---

(١) المصدر نفسه ٣: ٢١٢.

(٢) الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد ص ٣٣ ـ ٣٤.

شرطْنا في صدر الكتاب أن نذكره، وهو صدر من اللغة صالح. فأمّا الإحاطة بجميع كلام العرب فما[1] لا يقدر عليه إلّا الله ـ تعالى ـ أو نبي من أنبيائه. عليهم السلام».

ومن هذا ترى أن الحقول المعنوية التي يشغلها الفكر العربي قد تعيّن كثير منها، وبقيت منها شذرات غفيرة تحتاج إلى التعيين والاستقصاء بالإضافة إلى أنه ثمة حقول أبكار ثرّة تتولّد مع الأحداث والتاريخ، هي بحاجة إلى وصلٍ ببعضٍ ما كان من مقارب أو شبيه، أو تمييزٍ بمواصفات خاصة. وذلك كله يقتضي البحثَ عن البؤرة اللغوية التي يتعلق بها كل جديد، أو افتراعَ المادة البكر التي هي قريبة في اللفظ لهذه المواصفات. وما أكثر تلك الموادَّ الجاهزة للافتراع!

٣ ـ الاشتقاق الأكبر:

وهو قدرة لغوية كامنة توسّع الدوائر اللفظية التي فتحها الخليل والمِساحات التطبيقية التي جال فيها ابن فارس، وتبيِّن ما تحمله الأحرف المشتركة بين المفردات من معان متقاربة، أيًّا كان موقعها من الصيغة، بمعنى أن تقلّب الأحرف بالتقديم والتأخير قد لا يؤثر في الدلالة الأصلية للمادة المشتركة. وبهذا يكون حشد للمعاني المتقاربة في التقاليب المختلفة للمادة اللغوية الواحدة، مع كشف خطوط التواصل بين تلك المتقاربات وتخفيف حدّة الخلاف والافتراق أيضًا.

لقد سُمِّي هذا المستوى من التصرّف في الصياغة: الاشتقاق الكبير[2]، وذكر

---

(١) معجم المقاييس ٦: ١٦٠. وفي المطبوعة: «فهو مما» بإقحام «هو مـ» على ما في الأصل المخطوط. وانظر ٣: ٣٢٤ من نفس الكتاب.

(٢) هـذا ما عليه جمهور القدماء والمعاصرين، لأن أنواع الاشتقاق لديهم أربعة وهذا ثالثها في الرتبة. وقد سميته الأكبر، كما اصطلح له ابن جني، لأنه اجتمع لدي سبعة اشتقاقات: الأصغر والصغير والأكبر والكُبار والكُبّار والمركّب. والمذكور هو في المرتبة الرابعة. انظر: وظيفة المصدر في الاشتقاق والإعراب.

ابن جنّي أن شيخه أبا علي الفارسي (ت ٣٧٧) كان يستعين به عند إعواز الاشتقاق الأصغر في البحث، ولم يضع له مصطلحًا يدل عليه، وأنه هو، أي: ابن جنّي، قد سمّاه الأكبر تمييزًا من الآخَرَين: الصغير والكبير[١]، ثم عرض له نماذج متعددة، توضح مدى تنفيذه واختبار مصداقيته.

والحق أن الخليل بن أحمد هو رائد هذا الميدان أيضًا. فهو في اكتشافه القدرات اللفظية للغة العرب عن طريق تقليب أحرف المادة الواحدة كما ذكرنا قبل نثر تفسيرات معنوية تَشِي بالارتباط الدلالي بين التقاليب المختلفة. مثال ذلك أن في الخصلة والخلوص والتلخيص والصلخ ضروبًا من الجمع والاحتشاد[٢]، وبين الزغب والبزغ والبغز صلة رحم في ظهور آثار خفيفة من الريش أو الشمس أو الضرب[٣]، وفي كل من المرغ والغمر والرغم والغرم لزوم ما يكون من الدّهن أو الصّبغ أو الماء أو التراب أو المال والهوى[٤].

تلك استنباطات من عبارات الخليل في تفسير المفردات المصوغة مما ذكرت. فهو لم يصرح بهذه العلاقات الدلالية بين التقاليب. غير أن عرضَها في أنساق متوالية وشرْحَ ما تتضمنه من المعاني المتقاربة أو المتماثلة يشعران بإدراكه تلك العلاقات، ويعبّدان الطريق لمن جاء بعده، ليكتشف الظواهر ويجمع النظائر ويفسّر أبعادها ويضع لها المفهوم الاصطلاحي. هذا مذهب للخليل، وهو إشارات في بعض

---

(١) الخصائص ٢: ١٣٣ والممتع ص ٣٩ وارتشاف الضرب ١: ١٣ والمزهر ١: ٣٤٧ وفقه اللغة ص ٩٠ ـ ٩١.

(٢) العين ٤: ١٨٥ ـ ١٨٨.

(٣) المصدر المتقدم ٤: ٣٨٥.

(٤) نفس المصدر ٤: ٤١٦ ـ ٤١٨.

ميادين علمه ومعارفه من دون تفصيل. وقد سئل مرارًا: لماذا لم يفصّل ما نثره من بعض العلوم؟ فأجاب بأنه يترك لمن بعده ما يشتغل فيه ويبحث ويصنّف.

ومن هذه المنطلقات الخليلية، استطاع أبو علي الفارسي أن يجد يَنبوعًا غنيًّا يمدّه بالعون[1]، حين تعتاص عليه معاني المفردات عن طريق الاشتقاق الأصغر، إذ يرى أن تقليب المفردة بتغيير مواقع حروفها يكشف عن الأساس الدلالي لجمهور ما يصدر من أفعال وأسماء في ذلك الحقل اللغوي المحدود.

ثم تابع ابن جنّي آثار الخليل وخطوات الفارسي، فأجري عمليات متعدّدة من التصرف في المادة اللغوية، ليوسع السبيل ويحقق بالفعل والتمثيل ما أشار إليه الأوّل واعتمد عليه الثاني. ومن ذلك ما أظهر: في القول والقلو والوقل والولق واللوق واللقو من الخِفّة والسرعة، وفي الكلم والكمل واللمك واللكم والملك والمكل من الشِّدّة والقوّة، ثم ما تتبّعه في تقاليب نحو: بجر وقوس وسلم وندف[2]. ولك أن تزعم أيضًا أن نحو: جذب وجبذ، ويئس وأيس، وحمد ومدح، وطمأن وطأمن، واضمحلّ وامضحلّ، هو من هذا النوع الاشتقاقي، لا من القلب المكاني.

والحقّ أن ابن جني نفسه قد ضيق مجال هذه الظاهرة اللغوية، وذكر أنها لا تطرد ولا تنقاد في كل مادة، واعتذر لذلك بأنه إذا كان الأصل الواحد بنسقه المعيَّن قد لا يستوعب معناه جميعَ ما جاء من تصرفاته فإنه من باب الأَولى أن يكون في التقاليب ما يتخلّف عن الاطّراد[3]. إلّا أنه في نفس الوقت خفّف وطأة هذا التضييق، وذكر

---

(١) الخصائص ١: ٢١ و٢: ١٣٣.

(٢) المصدر السابق ١: ٥ ـ ٢٢ و٢: ١١٣٤ ـ ١٣٨ والخاطريات ص ٨٠ ـ ٨١ والصاحبي ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ وفقه اللغة ص ٨٦ ـ ٨٨.

(٣) الخصائص ١: ١٢ و٢: ١٣٧. وانظر الممتع ص ٤٠.

أن ما شذّ من شُعب هذه الأصول في التقاليب عن خضوعه للاشتقاق الأكبر فإنه يستجيب للعودة إلى حظيرته بالتأويل والملاطفة وترك الضجر، فتجد فيه قرب بعض من بعض كما تفعل ذلك أحيانًا في الاشتقاق الأصغر.

وبهذا أطلق لنا المجال في الثروة اللغوية، وقدم لنا طاقات إيجابية واسعة المدى، فيسّر لنا متابعة الخطا التي رسمها بأن نتقرّى الحقول الشاغرة في تقاليب المواد المختلفة، لنشغلها بالمعاني المستجِدّة على ساحة الفكر والتجربة والعاطفة والخيال. وذلك حين تكون قريبة مما يدور عمليًا في تقاليب مادّتها المعيَّنة. ولكنّنا نحن العرب لم نلقِ سمعًا إلى مقولاته هذه لنزوّد الفصاحة بالحفدة الأقحاح، وشُغلنا بالتهجين والتبني والتلقيح الاصطناعي والاستنساخ والاستنسال الأعجميَّين[1].

٤ ـ الاشتقاق الكُبَار[2]:

والمراد به أنه بين المعاني المتقاربة اشتراك في بعض أصول ألفاظها[3] مع تبدّل في الباقي، وقد يكون بين هذه المتبادلات تناسب في المخارج أو الصفات[4].

---

(١) الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) قد سُمِّيَ الاشتقاق الكبير أو الإبدال. انظر التعريفات ص ٨٢ والصاحبي ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٣) قد يكون للحرف الواحد طاقة لغوية تحمل ما يشاركه في البنية على دلالات معينة، كالغين والنون والميم والقاف والهاء والراء والكاف. الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد ص ٣٦ و٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٤) المصدر المتقدم ص ٣٥ ـ ٣٧. وقد أوهمت هذه الظاهرة بعض المعاصرين أن يكون أصل اللغة ثنائيًا، ثم أُلحق بذلك حرف ثالث أو اثنان ثالث ورابع أو ثلاثة. وهذا يعني تطور اللغة من البسيط إلى المركب، والصواب العكس، أي: التطور فيما عرف من تاريخ العربية نحو البساطة بالاقتصاد الصوتي ما أمكن. انظر ص ١٢ ـ ٢٢ من الكتاب المذكور قبل وكتاب نشوء اللغات وتطورها في المنظور الإسلامي.

فـ «نهق ونعق» مشـترِكان في النـون والقاف ومختلفان في الهـاء والعين المتقاربتين فـي المخـرج. وكذلـك نحـو: شـرح وشـرع، وفلق وفـرق، وكفـل وكفـن، وغلب وغلـف. وهـذه قـدرة ضخمة، لهـا حضور كبير فـي المعجميـة العربية.

وإنك لترى كثيرًا من المعاني المتماثلة أو المتقاربة تلتقي في هذا المضمار نحو: غمدَ وغمر وغمس وغمط وغمي، وفلجَ وفلع وفلك وفلّ، وخابَ وخار وخاس وخاف وخام وخان، وحدمَ وردم وسدم وصدم وكدم ولدم وهدم، وأنَّ وحنّ وخنّ ودنّ ورنّ وطنّ وغنّ وهنّ، وشبَّ وشجّ وشدّ وشذّ وشطّ وشظّ وشعّ وشقّ وشكّ وشلّ وشنّ، وتمتمَ وجمجم وحمحم وخمخم ودمدم وزمزم وصمصم وطمطم غمغم ونمنم وهمهم.

ومثل هذه الحقائق الواقعية في توضّع زمر المعاني ضمن البؤر اللفظية المتقاربة في التصويت يعطيك اليد أن تفتّق في الميدان سبلًا غنية بسد الحاجات اللغوية. فإذ كان هذا التوضّع ظاهرًا متحققًا في بعض التكتلات الصوتية جاز لنا أن ننقله إلى مِساحات جديدة، نستقري صور اللقاء في كل منها والفراغات التي هي شاغرة عُطل من الاستعمال، لنملأها بالمقاصد الجديدة في عالم التعبير حين تكون قريبة من شقائقها في المِساحة المعينة.

القياس العملي

هـذه القُـدُرات الأربع سـايرتْ حيـاة العربية التـي نعرفها، وجرت في أحشـائها وعروقهـا نافـذة متحققـة، تسـتخلص مـن المـواد الصوتيـة صيغًـا وألفاظًـا، لتتلبس الـدلالاتِ المتولـدة فـي شـؤون الحياة. وقـد التقت تلك الصيـغ والألفاظ فـي البؤر المذكـورة علـى غيـر موعـد أو قصـد وتقدير. فـكل منهـا حيـن يتوضـع فـي مكانه

المناسب لمدلولـه يجـد نفسـه مع شـقيقه فـي بُوتقـة واحـدة، فيكـون نصيـرًا له في تحقيـق الطاقـات الحيوية للغـة القـرآن الكريم.

فالعربي القديم، طفلًا كان أو شـابًّا أو كهلًا أو شـيخًا، يرتجل المفردات اللازمة لِمـا فـي نفسـه مـن المقاصد بالفطـرة، ويلقيهـا فـي عبارته للنـاس من حوله، سـائغة محقِّقـة مـا يريـد ومعبّـرة عمّـا حمّلها مـن الدلالـة في سياقها المعهـود، والأجيال المعاصـرة لهـذا العربـي كانت تتلقـى ارتجالاته تلك عفـوًا، وتنقلها إلـى مواقعها من منجـزات الـكلام، فتصبـح ذات رصيـد لغـوي عام، ثـم تدخـل معجم الأمّـة عناصرَ صالحة للاسـتعمال والنماء.

كذلك حملَ العربي في لسانه القدرات الذاتية للنموّ، حملها مَلَكة سليقية متفتّحة مستوفزة، تتطلع إلى التحقق فعلًا في التعبير، وتتقحم السبل والمنافذ لتقدّم خِدماتها في إسعاف المتكلم بما يملأ فراغات من عباراته وتراكيبه في اللحظة الآنية المناسبة. ولا شك أن الحقول المتعددة التي عرضنا صورها من ناجز المفردات لم تكن قد صدرت دُفعة واحدة، وإنما توالت بعضُ عناصرها متفرقة مع الزمن، فإذا هي تتوضّع في بؤَر متميزة متمايزة، لأنها تصدر عن الطاقات الفِطرية التي منح الله ـ سبحانه ـ لغة كتابه الكريم إياها خاصّةً وعن الملكة الأصيلة التي وهبها لأبناء العروبة والمستعربين أيضًا دون غيرهم من البشر.

ومعنى هذا أن الإنجاز اللغوي[1] في تاريخ العربية هنا سار مع القياس من دون قصد أو تدبّر، يُجري أصول لغته وأساليب تفتحها، ويغذّيها بثمار ما تمدّه هي به من المواد وسبل الإجراء والتنفيذ. وبذلك كان لدينا خط بياني مقصود عن غير

---

(١) الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد ص ٣٧ ـ ٣٨.

وعي، يوضح مسيرة المعاني المتقاربة في أحياز صوتية متشابهة في النسق أو متبادلة للمواقع أو متبادلة لبعض عناصرها. وهو في الوقت نفسه يرسم وجهة الاستهلاك الماضي والسبيل المعبدة للمستقبل، ثم يترك للأجيال فيه فراغات احتياطية جاهزة للاستعمال، تيسر ملء ما يحتاجون إليه، وتستوعب الجديد من المعاني والأشياء في تاريخ العلوم والتجارب والأعمال والعواطف والتمثّل والخيال.

وقد تبعتْ هذه المسيرةَ طبقات من أجيال الأمّة في مجهول التاريخ، تنمّي ما غرسه الأجداد، حتى صار لدينا ما سردنا بعضه هنا يمثّل ظواهر واقعية تستحق الدرس والاعتبار. بل لقد حدّثنا التاريخ المعروف أن النابهين من فصحاء العربية كانوا يرتجلون كثيرًا من المفردات على نمط قياسها المقرر كالعجاج ورؤبة وابن أحمر وبشار، وأن الشاعر الأندلسي عبد الكريم بن عبد الرزاق نظم مِدحةً للنبي ﷺ في أكثر من سبعِمائَةِ بيت، وضع فيها ألفاظًا كثيرة لم تُعرف قبل[1].

غير أن أجيالًا تلت عصور العروبة جاء فيها من حجّر واسع التوجّه، فأنكر على المتكلّم قياسه ذلك وتوليده ما كان بالملَكة والفِطرة، حتى إن ذلك الشاعر الأندلسي اتُّهم بالكذب والافتئات. ونحن الآن في مثل هذه الحال من التحجير، تطالعنا أصوات الأوصياء بالتنديد والإنكار مع أن موجات القياس تتعالى وتتنامى في الإنجاز اللغوي، وتملأ عشرات الألوف من أحياز الكتب والمصنّفات والمؤتمرات والندوات، وتتلبس ثوب العروبة وتتحد هي وشقيقاتها سَدًى ولُحمة بحيث يتعذر على الخبير تمييز التراثي من المولّد فيها.

بل إن العاميّ من أبنائنا ليستغل غيرَ مُبالٍ بصرخات أوصياء العربية تلك

---

(١) تذكرة النحاة ص ٥١ ـ ٥٢.

الطاقاتِ الكامنةَ في مثل قوله: عنّ وكتّ وشرّ وقبش وغمق وشحر ولحش وقرط وشلع وشبط وشطح وشخط[1]... أضف إلى هذا ما ارتجله لملء حجرات شاغرة في البناء اللغوي إذ وضع: كلشَ وكعشَ وكاشَ، ليجاري المعاني المنتشرة في نحو: كبشَ وكدشَ وكمش وكنشَ، ثم ما اصطنعه في الكلام من نحو: شلفَ وشلعَ وشلطَ، مجاراة لما في: شلحَ وشلق، واستعماله: زتَّ وكتَّ، في غير معناهما الوضعي للتعبير عما هو قريب فيما يشاركهما في التاء، كقولك: شتَّ وفتَّ وكتَّ ولتَّ ومتَّ وهتَّ. ومثل هذا كثير جدًّا ومعروف، يوضّح ما ذكرنا من القُدثرات الذاتية للُّغة الإسلامية لغة الكتاب العزيز.

ومع ذلك كله، ترى أنصاف المثقفين اليوم ممن جعلوا أنفسهم أوصياء ومتنفّذين يلتقطون بعض الأحكام المبتذلة من غير وعي أو تدبر، ثم يلوّحون بها في وجوه المجدّد لرحاب العروبة بفطرة واقتدار. فإذا سمعوا من يستعمل ألفاظًا من مثل: تِلفاز ودِبلاج وكِبتار وفِرشاة وفِرجار وبِنطال وسِشوار ومِغناط، ومُبستَر وممغنَط ومتلفَز ومدبلَج ومكبتَر... هالَهم الخروج على ما ألفوا، واتهموه بالجهل والإفساد لوجه العربية بحجة أن مواد تلك المفردات ليست في المعاجم المعروفة.

لقد نسي هؤلاء أن أحرف تلك المفردات عربية صليبة، وأن صياغتها جاءت على ما تحقّق في أسماء الآلة والمفعول من الرباعي المجرد أو الثلاثي المزيد فيه حرف واحد، نحو: سِربال وسروال وغربال ودرباس وقسطاس وجلباب، ومُسربَل ومسروَل ومغربَل ومدربَس ومجلبَب[2]. ثم غاب عنهم أن هذا قياس صحيح موثّق،

(١) الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد ص ٢٧٤.

(٢) تصريف الأسماء والأفعال ص ١٥٧ و١٧٥.

وأن ما قيس على كلام العرب هو من كلامهم، كما قرر الخليل بن أحمد منذ فجر البحث في التأصيل اللغوي[1].

فلنا بل واجب علينا أن نجدّد الاستهداء بالقياس هذا، لنلبي حاجات العصر بما في طاقات العربية من قدرات فطرية، وما في ألسنة أبنائها من ملكات متحفزة للإنتاج والإنجاز، لنصوغ بالتعريب ما هو ودودٌ وَلودٌ من المفردات المعبرة عن المعاني المستجِدّة. أمّا الودود فهو ما كان بحروف لغتنا التي نحبّها وتحبّنا، وأمّا الولود فهو الذي يحمل بالقوّة قدرات على ولادة عدد وافر من المفردات القياسية الخارقة، كالكلمات التي سردنماها في الفقرتين المتقدمتين.

تَرِكة ومسؤولية

إن تلك المواقع اللفظية الشاغرة التي خلّفها لنا الأجداد في كثير من المواد الموحّدة أو المتشابهة أو المتقاربة أو المتبادلة هي حقول أزلية مخزونة غنية بالينابيع المعطاء، تحمل في مطاوي ثروتها مفرداتٍ كامنة بالقوة وجاهزة للاستعمال بالفعل، وتنتظر من يستخرجها ويوظّفها في إنجازات الصياغة والخطاب، لتأخذ مكانها من المعجمية العربية والتعبير الحي.

ومَثل هذه الحقول كمَثل الأراضي الشاسعة المهملة في بلاد المسلمين، خلّفها الأجداد في الوطن المعمور المنكوب بأهله، تنتشر في ملايين البقاع مجهولة لدى أصحابها اليوم، يغمرها الفراغ والأوهام والجفاف والوحشة والموت، وهي في حاجة إلى إحيائها بالبَشَر والحيوية والنشاط والاستيطان والعمل صناعة وتجارة وزراعة وتحصينًا بالسلاح والقوة والعتاد. ولكن أصحابها يتجاهلونها ويزحفون إلى المدن

---

(١) المنصف ١: ١٨٠.

ليعيشوا بمزاحمة السكّان حياة التكفُّف والتطفُّل والاستجداء، ثم ينتظرون معونة المنظّمات الدولية المتهوّدة تجود عليهم بفتات الموائد ودنيء الأعمال. وكذلك ملايين العقول والنفوس المعطلة عن العمل لقصور التوجيه وظروف النشاط.

فلعل أولئك المرجفين المنكرين لتنمية العربية قد اعتادوا أن يلزموا الجمودَ وشكوى العجز وانتظارَ أيادي المستعمرين لتجود عليهم بفتح السبل وتعبيدها وترصيفها ودفعهم فيها بالأنماط المقنّنة والإشارات المبرمجة والسياط اللّاهبة بعبودية واستخزاء. ذلك لأنهم ألفوا الاستقرار مع الخوالف، تصل إليهم الآلات والمنجزات الحضارية مع الخبراء الأجانب والوصَفات المقنّنة والأدلة الملزِمة، لتحديد تنفيذ الاستعمال والإنجازات في مختلف مناحي الحياة. وكذلك هم الآن ينتظرون أن يشير أولئك الأجانب بعصاهم السحرية، لتُفتَح أمامهم أبواب للتعبير فيها أساليب الكلام والخطاب مبرمجة مدبلَجة مهيئة للاستعمال.

فلقد حضرتُ منذ عشرات سنوات ندوة في إحدى مدن القصيم بالمملكة العربية السعودية، لبحث مشكلة الضعف اللغوي وتقهقر الفصحى واقتراح وسائل الشفاء والصلاح، فكانت بؤرة الحديث بين المشاركين في الندوة وقوفًا على مفاخر العربية ومميزاتها وسعة ميادينها وآفاقها وعظمة تاريخها المجيد، ثم على الرثاء والشكوى لِما تعانيه الآن من ضعف ونكبات وتقهقر وتحجيم. أمّا الأطروحات الإيجابية لحل المشكلة القائمة فكانت مستمدّة من نظريات الأوربيين في دراسة اللغات ونصائحهم لإصلاح العربية وتقويمها.

هذا مع العلم أن غالبية التعبير بين الزملاء كانت بالعامّية المحلية بين شامية ومصرية وسعودية وعراقية وسودانية... فمن أين يكون للعروبة تأصيل وسيادة

ونماء؟ وكيف يُنتظر من مثل هذه المهازل أن تصف الداء وتقدم الدواء، وهي أول من يحتاج إلى النصح والتوجيه والعلاج؟

لقد ضل هؤلاء سبل العمل والإصلاح والكرامة، وعاشوا في عبودية واستجداء واستخزاء، يزيدون البلاء شدة وعمقًا، ويدفعون أموالهم وأوطانهم وأجيالهم وكرامتهم غنيمة للعدو مقابل هذه المستوردات التي هي أقرب إلى التهديم والفساد، وأكثرها غير ذي غناء في واقعنا المرير. إنهم يستطيبون حياة الدعة والأُبّهة والمفاخر، ويقابلون مشكلاتهم بوصَفات مسمومة في ذلة وضعة وصَغار عبيدًا مستسلمين لسياط السادة من الغرباء.

وبهذا تكون تلك المنتجات المادية والمعنوية كالمخدّرات الخفيّة، تعتاد عليها الأجيال المتلاحقة، وتظن فيها الغَناء والكفاية، فتقيم على مواردها حياة مؤسّساتها ومنازلها والمصالح العامة بحيث لا تستطيع من دون ذلك متابعة الحركة العملية. فإذا غضب الأسياد لعدم استجابة العبيد لهم في زيادة القيود والأغلال وفرض الإتاوات حجبوا عنهم بعض تلك الموارد ليحملوهم على الاستسلام بطواعية وهوان.

ثم إن العدو إذا سمح لنفسه أن يساعد في تنمية مصلحة لنا فإنه يؤسّسها على ما يكون لدولته فيه السلطة والتحكم، ويربطها بمصالحه ومكاسبه المستقبلية، لتكون طوع يده مزرعة لأبنائه وأحفاده، ولا يمكن أن يُخلِص في العون والنجدة. بل إنه ليضع فيهما من المعرقلات الفنية والعملية ما يجعلك دائم الارتباط به والاتكال عليه. فمحال أن يقدم لك خدمة مجانية خالصة من الغش والاستغلال الأبدي.

ولهذا ترى كثيرًا من السلاح والعتاد والأجهزة والآلات عديم الفائدة حين

الحاجة وذا مردود ضعيف مثبّط وارتباط دائم بمصادر صناعته وتنسيقه.[1] ولطالما شدّ ذلك السيّد زمام القيادة بتلك الحاجات، لينيخنا في مواطن الخزي والاستلام. فمن ينتظرُ يدًا للغزاة في تنمية العربية يريد لنا أغلالًا ثقيلة جديدة، ليس فيها إلّا صَغار على صَغار، وليس لمؤمن بحرّيته أن يسلك مثل ذلك السبيل.

***

قلت مثل هذا البعض إخوتي وطلبتي في إحدى الجامعات الخليجية، فاستنكروه مدّعين أن هذه المستهلكات هي زينة الحياة الدنيا، ومُتع هيأها الله ـ تعالى ـ للناس من كل وطن وقوم، و﴿مَن حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخرَجَ لِعِبادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ﴾؟[2]

قلت: إنما تكون هذه الحاجات كما ذكرتم، إذا حصلنا عليها بجهد كريم، ونحن أسياد أنفسنا وأولياء أمورنا، نبادل الآخَرين فيها بما يحفظ لنا الكرامة والاستقلال. أمّا في هذه الحال من الضعف والاحتلال والانقياد فتكون مخدّرات خفية وقيودًا براقة وأزمّة منمقة مزخرفة، ندفع ثمنًا لها ألوان العبودية والاستسلام.

قالوا: بل نحن ندفع المال من ثرواتنا وأعمالنا، فهم مسخّرون لنا يقدّمون كل الحاجات، وقد جعلنا الله أسيادًا نشتري ما نشاء منهم نِدًّا لِندّ.

قلت: إن ما نملكه اليوم من مال ومتاع ليس لنا حق التصرف فيه ما دام في بقعة من أرض الإسلام معتد أو غاز أو غاصب أو محتلّ، بل الواجب حجبه عن البذخ والترف، لإنفاقه في جهاد المعتدين إعدادًا وتدريبًا وحربًا للردع والتحرر والسيادة

---

(١) منذ ٥٠ سنة سمعت بأذنيّ زعيمًا عربيًّا معبودًا في قومه، يصرّح على الملأ أنه خسر المعركة أمام دولة العصابات لأن السلاح الذي باعه إياه أصدقاؤه فاسد غير صالح للاستعمال.

(٢) الآية ٣٢ من سورة الأعراف.

والاستقلال. ولقد كان بعض شيوخنا في حلب يداعبون عواطفنا بمثل مقالكم ذلك، ونحن في الطفولة نتقبّله منهم احترامًا وتقديرًا لِما هم عليه من التجربة والنظر البعيد.

ثم تبين لنا ولهم أن ذلك القول فيه أوهام ومغالطات كبيرة، انقلبت علينا بتسلّط رهيب للكفر والطغيان. فقد تكدّست أموالنا في خزائن الأعداء، وصارت علينا ديونًا متراكمة بِرباها وسيفًا مصلتًا فوق رؤوسنا يلوِّح به في كل حين، ثم وُظِّفتْ تلك الأموال في صناعة كثير من كماليّات ومغريات جديدة لنا وأسلحة لهم تهددنا بالإرهاب والدمار والفناء. فنحن نشتري لأنفسنا أصفاد العبودية، ونسلم رقابنا للمِقصلة بطواعية واختيار.

ثم لو منعوا عن أسرنا المواد الأساسية لـ «الكوكا كولا» مثلًا والصناعات الصيدلانية والغذائية من الكماليات ومظاهر الأبّهة والرفاهية، مُدّة أسابيع لكان لأبنائنا ورجالنا ونسائنا مسيرات صاخبة تندّد بنا، وتحملنا على مجاراة الأجنبي لفك الحصار والافتقار، ولو حجبوا عنا قِطَع التبديل للآلات والأجهزة والمصانع والمزارع والمستشفيات والموادّ الجوهرية للصناعات التجارية... لتعطّلت أعمالنا كلها دُفعة واحدة، وركعنا في قفص الاستجداء نطلب العون والغوث والإنقاذ.

لقد صنعوا للحياة الدنيا هذه الخِدمات الكثيرة الآسرة، فسلبوا أموالنا وجهودنا وأوطاننا وما نعتز به من سيادة وكرامة. إنهم يجدّون بوعي وهدف قاصد، ويقدّمون لنا المغريات وفائض الحاجات، ونحن لا نقدّم شيئًا سوى ثمن الطواعية والاستسلام.

قالوا: بل نحن نقدم العقيدة والإيمان.

قلت: هذان الرمزان الشريفان لا يتقبلونهما الآن منا لأنهم في موقف التسلّط والاستعلاء، ونحن في قاع المذلة والاستخزاء، ولا يرون مع ما نقدمه منهما شيئًا يدل على جدواه في مستويات الحياة والمعاش. فالعقيدة والإيمان إذا لم يكونا في

أمّة محترمة ولم يرافقهما عمل الصالحات لخدمة الإنسانية وفلاحها كانا في نقص وضعف وانكسار وسخرية وتهكّم. قد يكون لهما نفع في الآخرة، أما الحياة الدنيا فهما في حاجة إلى أعمال ترفع مستوى الإنسان روحًا ومادة، نقدمها للبشرية مقابل ما نستهلك من مرافق الحياة.

قالوا: نحن نقدم **البترُول**.

قلت: إن البِترَول، أي: النِّفط، هم الذين اكتشفوه واستخرجوه وصنعوه وصدّروه إلينا وإلى بلادهم والعالمَ بأسره، ونحن إنما نعمل بآلاتهم والوسائل والأساليب التي وضعوها لذلك. فلا يد لنا في تصديره ولا حق لنا في الإدلال به. ثم لو حاصرونا من إنتاجه واستغلاله وتصديره كانت الحجارة والعِصيُّ أنفع منه وأجدى علينا. فأين عملنا الصالح والحياة الكريمة؟[1]

وها نحن أولاء نرى بأعيننا تفاقم طغيان الأعداء في بقاع كثيرة من دنيا الإسلام، ولا نستطيع لهم حربًا أو ردعًا. وأفظع ذلك ما يتجدّد من تسلّط اليهود في فلسطين، ويزداد من عدوانهم على المسلمين والأرض المباركة، ونحن في ركود واستجداء للمسالمة والصلح المهين. لقد يئس إخواننا المنكوبون المجاهدون من نُصرتنا، واستقبلوا واقعهم ومصيرهم وحيدين، يجابهون الفتك والدمار بصدور عارية وقلوب ضارعة لله بالعون والتأييد غير منتظرين منا نصرة أو فداء.

وفي ندوة أدبية منذ ثلاثين سنة، لقينا زميلة مسلمة من إحدى جامعات فلسطين، وسألناها عن رأيها في موقف العرب والمسلمين من العدوان اليهودي وطغيانه،

---

(١) كان هذا القول منذ ثلاثين سنة، ثم رأينا ما صار إليه نفط العراق الحبيب، حين نُكب بتسلط الإرهاب الدولي ومعونة الطواغيت سماسرة القيم والشعوب وسدنة البغي والعدوان في بلاد العرب.

فكان جوابها أن قالت: لقد كان إخواننا العرب والمسلمون منذ خمسين سنة ينجدوننا ببذل النفس والمال وكل جهد كريم. وذلك حين كان يُسمح لهم بالجهاد ونُصرة المستضعفين في خطط مشبوهة مقيدة بمصالح العدو. وقد أسعفتنا تلك الجهود في كثير من الظروف الصعبة، وخفّفت عنّا كثيرًا من البغي والعدوان، لكنّها لم تستطع أن تزيل الاحتلال والطغيان لِما هي عليه من قيود، ثم باءت بالهزيمة تلو الهزيمة، تفاخر بها إكليلَ غار ونصر وأمجاد.

وهاهم أولاء الآن في ظروف عصيبة، وقد نُزعت من أيديهم أزمّة الجهاد، وسُلبوا حرية الكلمة والإرادة والقدرة على التضحية واستخدام السلاح عاجزين عن حماية أنفسهم من الطغيان والبلاء، وشُغلوا بمفاخر الأبّهة ومظاهر الترف، فلا يكون منهم في معركتنا غير الشكاوى والمسيرات والسخط والدعاء الخالي من مقوّمات الاستجابة الربّانية. ولذا فإننا نفضنا أيدينا من معونتهم، وشرعنا نبني مستقبل المقاومة لليهود ومَن خلفهم من جبابرة البغي والاستعمار والنفاق، على أننا وحدنا في معركة الجهاد، ولا عون لنا فيها إلّا من الله العزيز المنتقم الجبار. وإننا لمنتصرون، إن شاء الله، بعونه وتأييده وبالإيمان والتضحية والفداء.

ذكرتُ بعض هذا للإخوة والطلّاب الذين كنت أحاورهم، ثم أضفت أن اليهود قد استباحوا المسجد الأقصى وما حوله من المقدّسات، وهم يوسّعون سلطانهم بابتلاع المزيد تلو المزيد. ولن يوقف زحفَهم ما نحن عليه من التنازلات المتوالية والشكاوى والاحتجاجات العالمية والدعاء والتضرّع والتضعضع والاستسلام، بل لسوف تمتد مطامعهم إلى ما أنتم فيه الآن، فيسعون لاحتلال خيبر ويثرب وما حولهما بدعوى أنهم كانوا في ذلك أصحاب أرض ووطن. ثم سيقولون: «الكعبة لنا، بناها جدُّنا إبراهيم».

فمن يقف لهم حينذاك، ونحن الآن لا نتحلحل للمذابح والتقتيل والتهديم والتهجير في مسرى الرسول الكريم؟ آلضميرُ العالمي الذي يُستهلك في أسواق المال والدعارة والنِّخاسة؟ أم المنظمات الدولية التي تنقاد لزعماء اليهودية والإرهاب العالمي دمارًا وقتلًا وتشريدًا وامتطاء لرجالات الخيانة والتآمر على الأوطان؟ أم الرأي الدولي الذي تتوزعه مكاسب الزعماء وتجّار الحروب والفتن؟ أم الطواغيت سماسرة القيم والشعوب الذين يتاجرون بالبلاد والعباد والكرامة للحفاظ على مناصب العبودية والهوان؟

قالوا: وماذا نستطيع أن نفعل الآن، وليس بأيدينا زمام الأمور؟ وما هو السبيل لقمع الاحتلال والعدوان؟

قلت: الأمر يسير جدًّا، إذا استجبنا لنداء الله ـ سبحانه ـ والرسول ﷺ. وذلك بإعلان الجهاد في صفوف المسلمين وفتح بضعة ثغور حول الأراضي المحتلة، يتعاقب عليها المرابطون من الشبان والكهول والشيوخ، لتكوين سرايا تستنزف قدرات اليهود وحياتهم بالقتل والأسر والتدمير والاحتجاز. حسبنا من هذا عدة مواقع تحيط بالعدو لبضع سنين. وهي تؤرّقه وتزلزله وتحمل سيول الغرباء منهم على اليأس من الإقامة وشد رحال الهرب للنجاة من الفناء.

قالوا: ليس لدينا سلاح نقاتل به، ولن يُسمح لنا بفتح تلك الثغور وتحقيق الجهاد لأن ذلك للجيوش النظامية وحدها.

قلت: إذن نزحفَ مسالمين بلا سلاح في خمسة ملايين من الرجال والنساء والولدان إلى الأرض المحتلة من جميع جهاتها دُفعة واحدة. وسترون كيف يهرب الغزاة تاركين وراءهم ما يملكون. وإذا استجازوا المقاومة استُشهد منا مئات الآلاف، وسلمت الديار والكرامة للباقين من المجاهدين.

فاليهود لا يجابهون زحف المسلمين وجهًا لوجه، ويخافون محاربة المجاهدين المستشهِدين، فلا يكون لهم مناص من الهزيمة والفرار، [1] ليعودوا إلى أوطانهم راضين من الغنيمة بالسلامة والإياب[2]. إنهم مرتزقة في أسواق المطامع السياسية،

---

(١) هذه ثغرة واحدة يسيرة فتحها أبطال جنوبي لبنان، فزرعت في اليهود الغزاة ألوان الاضطراب والعجز، وحملتهم على التشكي والتراجع عن مواطن من الأراضي المحتلة. ولقد عرفنا أيام تموز سنة ٢٠٠٦ عُدوان اليهود ومتهوّدي حلفاء الغرب والشرق على الجنوب اللبناني وبدعوى أسير يهودي في لبنان، إذ انقضّت فيه النصرانية الغربية المتهوّدة والوثنية الشرقية الملحدة، بأحدث السلاح والذخائر الفتّاكة المحرّمة لفرض الذلّة والاستسلام على جنوب لبنان، فتصدّت لذلك فئة من سكّان قرى الجنوب المؤمنين بشبابها المستعدّين للجهاد بالقرآن والعقيدة والشريعة لمُهِمّة الدفاع عن ديارها وكسر نطاق الحصار والبغي والتهديم.

دارت المعارك بين جيوش عالَمية بأحدث الأسلحة والذخائر والخِبرات، وشباب غضّ موجَّه بالقرآن الكريم وتعاليم الإسلام وحيِه الكريم وسُنّتِه الشريفة وبيسيرٍ من السلاح والذخيرة والخبرة، ومتعطّش إلى حماية دياره والشهادة في سبيل الله. لقد خطّط المؤمنون أن يكون للغُزاة استدراج بدخولٍ جشع ثم استعصاء بلا عودة تحت نيران القصف والتفجير، وأن يُسقط منهم ومن المستوطنين المجرمين عشرات القتلى وآلاف الجرحى، فيجهزّ مَن بفلسطين من مهاجري اليهود أنفسهم فعلًا للعودة إلى بلادهم التي كانوا قد نزحوا منها بقصد الغزو والتقتيل والتخريب والإفساد والارتزاق والاستنزاف.

(٢) هانحن أولاء نرى أن الطفل بالحجارة يزلزل الجيش المسلح بأحدث وسائل القتل والتدمير، ويدعم الدول العظمى وسماسرة القيم والشعوب، فيعجز عن المجابهة واللقاء، ويقبع خلف المتاريس والجدران والآلات المصفحة. ثم يصبح هذا الطفل المستبسل المستشهد متفجرات بين جموع المعتدين، ورهبة في القلوب ونفرة من الاستيطان، فتكفر مئات الألوف بالاحتلال ومجد إسرائيل، وتولي إلى أوطانها هاربة بالأرواح والأبدان. فيكف إذا كان مع أولئك الأطفال ملايين من المستبسلين؟ مُحال أن يكون لليهود سيادة في ديار الإسلام، بل للمواطنين منهم أن يكونوا رعية في ذمة الله والرسول. وإنما يحظون بمناصب القيادة في دول الإرهاب الدولي، لأنها من صنع أيديهم وما يتاجرون به من مبادئ الإجرام والبغاء والإفساد.

يخافون الموت أشد الخوف، وعندما يرون أن تجارتهم خاسرة بالأرواح والأجسام، يتركون الميدان لسماسرة الغرب ويولون الأدبار[1].

وكذلك نفعل في كل مجموعة إسلامية، يهددها الغزو أو الاحتلال أو العدوان، من مثل أفغانستان والعراق والسودان وباكستان وكشمير وبنكلادش وإندونيسية والشيشان والبوسنة والمجر ونيجيرية... يكون منا مجاهدون باعوا أنفسهم وأموالهم لله عز وجل ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾[2]. وبهذا وحده تكون عزة الإسلام والمسلمين وردع كل من يفكر في العدوان أو الطغيان: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ. إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[3].

***

إن ما ذكرناه هنا، في معرض الحديث عن المسؤولية العملية نحو أمتنا وعزتنا وموروثنا اللغوي ومعاشنا الحضاري، يقتضي النهوض بالإعداد للجهاد والاستبسال، وتهيئة وسائل الاستقلال العلمي والعملي، مع السعي في تنمية الثروة اللغوية المسعِفة في التعبير والخطاب، بحيث تكون موازاة دائمة بين تجدّد الحاجات الحيوية والسياسية والعلمية ووسائل البيان والتواصل التعبيري. ففي مخزون عروبة اللسان ثروات ضخمة، تمد أيديها لمن عرف سبيل الصياغة والإنجاز والاستعمال. وقد أشرنا مرارًا إلى ما قدمته الأجيال الغابرة والآباء الأقربون من مولّدات تحيط بكل جديد أو محدث.

---

(١) الآية ١١ من سورة التوبة.

(٢) الآية ١١ من سورة التوبة.

(٣) الآية ٤٠ من سورة الحج.

قد يقال: إن الصياغات الجديدة من الحقول اللغوية الشاغرة حصلت بحسب المقاييس الموضوعية المقرّرة، وهي مقبولة سائغة في النفوس والألسنة لأنها من معدن مألوف ويَنبوع معمور بالآهلة والعمران. فلا بأس أن تُستقطب فيه الملكات العربية لاستنزاف آبارها وتوظيف عناصرها في تنمية الفصاحة والبيان. أمّا الارتجال من مواد مهملة عافتها المعاجم فمسلك عسير ومنهج خطير، قد يدخل في باب الاجتهاد.

نعم قد يكون هذا اجتهادًا، وهو مورد عسير وخطير، ولكنه مفتوح الجنبات معبَّد بخطوات القدماء والمولَّدين والمتأخّرين ومهيّأ للورود والاستنباط والعمران، بلا حرج أو تأثيم إلّا ما يجب من مراعاة أصول اللفظ والبناء في الحروف والصيغ والتراكيب، ليكون المصوغ ودودًا ولودًا كما ذكرنا فيما مضى.

وقد أنتج القدماء آلاف المفردات من ذلك، في نحو: أبرويز وأذربيجان وأرسطاطاليس وإسرائيل وإسرافيل وأسطُرلاب وإسماعيل وإسفنج وأُشْوقة وإصطخر وأفلاطون وأنطاكيّة وأنوشروان وإهليلَج وإيوان وبَدليس وبَرنيل وبطياس وحزقيل ودست ودُمُستق ورَتبيل ورستاق وسقراط وقُبج وكهرمانة ونرجس ونُمروذ وهِرقل ويلمق ويهوذى ويوحنّى ويوشع... ثم جاء مَن بعدهم فوضعوا للبلدان والأمراض والأدوية والمفاهيم العلمية والفنية كثيرًا من الألفاظ التي ليس لها مواد حاضرة حينذاك في المعجم العربي، وقد لا تكون على الأوزان العربية المألوفة حين الضرورة.

ثم نقول للمثبّطين هؤلاء: حقًّا مَن حرّم زينة الله؟ لقد جعل الله عز وجل اللغة وسامًا كرّم به الإنسان، وميزه به عن سائر خلقه، وكذلك شأن العقيدة والسلوك الشرعي، ثم جاء من المتأخّرين والمستعمرين من يسد علينا سبيل الاجتهاد في الشريعة واللغة، لنعيش في مستوى غير إنساني، ونستمر في حاجة دائمة للغير، نستكفّ يديه

ونستعطفه ليمدنا بالبالة أو بالة البالات من حاجاته المبتذلة، نقتات بها في حياتنا القانونية المستوردة أو اللغوية المستنسخة، والسيرُ في هذا السبيل تكريس للعبودية لغير الله واستمرار للمذلة والصَّغار.

ومع هذا فقد فتح الاجتهاد الشرعي بابه منذ عقود، وخلّف وراءه تلك السدود. إلّا أنه كثيرًا ما اعتسف السبل وتنكّب مصالح الأمّة الإسلامية بالفتاوى النفعية المختلقة، تسير في ركاب النظم والحكومات التي هي مطية لأهوائها وتطلعات المستعمرين. وإذا كان هذا قد حصل فعلًا في حقل الفتيا، واتلأبّت رسومه في حياتنا العامّة والخاصّة، فإن الاجتهاد اللغوي له منطق آخر بعيد عن تلك التيارات السياسية والمكاسب الشخصية.

إنه ينبع من أفئدة العرب وألسنتهم وتطلعهم إلى التحرر والسيادة والاستقلال، فترى موجات من الصياغات في اللفظ والبُنية والتركيب، تقتحم الحياة على الأقلام والأفواه والآذان بين الصغار والكبار والعجزة نساء ورجالًا، ثم تُصقل وتصقل فإذا هي ذات جنسية عربية وضاحة، تمتلك نواصي الخطاب في العلم والأدب والحياة عامة.

أضف إلى ذلك ما اجتهدتْ به المؤسّسات العلمية في الجامعات والمعاهد والمجامع اللغوية، وما ابتكره رجالات المهن الحرة والصناعات المستحدثة من مفردات وتراكيب تملأ حاجاتهم المتكاثرة. ثم إذا أنت مررت بها أو طرقت مسمعك حسبتها من صياغة يعرب وعدنان وزهير ولبيد وقُسّ بن ساعدة وعلي بن أبي طالب وأبي حمزة الخارجي والحجاج الثقفي.

وهذا غير ما تلقاه اليوم في اللافتات والدعايات التجارية وبعض برامج التلفاز والإذاعة وأسطر الصحف والمجلات من عبارات ومفردات عامية أو هجينة بالحرف العربي، تستفزك وتصدم حسَّك وقلبك ولسانك، وتشعرك بما وصلت إليه أذواق بعض

العرب والمسؤولين عن الإعلام من جهل بأهمية الفصاحة، وتمثّلُ لك الأثر الكبير لها في بلبلة الألسن والمفاهيم والأذواق. وقد استشرتْ هذه الانحرافات التعبيرية في كثير من وسائل الخطاب العربي إلى درجة ممقوتة جعلتها محطّ سخرية واستهزاء.

وسائل التنفيذ

لقد كان ما ذكرناه من قدرات ذاتية لعروبة اللسان يفرض نفسه في التاريخ اللغوي ويحقق أغراضه بالتنفيذ العفوي، فيقدم للساحة التعبيرية ما يسد حاجاتها، ويقابل النكبات والكوارث والغزوات بلهفة وحيوية، تستوعبان ثقل الأعباء، وتتجاوزان مراحل الخطر والاضمحلال في نشوة من الصحو والانطلاق نحو التجدد والنماء. وقد استطاعت هذه الطاقات الربّانية المتميزة أن تحفظ للعربية أصالتها وتطلعاتها إلى التفتح والاستقلال، وأن تُبقي لنا لغتنا في معترك الحياة سليمة البنيان صافية اليد والوجه واللسان، وتبشّر دائمًا بالتمكن والاقتدار.

إنها خَلق رباني عظيم شبيه بالخلايا المستجِدّة دائمًا، تمتلك طاقات التكاثر والتوالد بالقوة والفعل، فتتسع دوائرها في المكان والزمان بقدرات ذاتية دائبة، وتبسط منجزاتها في الأفئدة والألسنة والأقلام فور الحاجة والاستنجاد ومن دون حاجة إلى التحريض والتغذية والاستعطاء. وما زالت تتدفق بانطلاق عفوي في ميادين الحياة العربية، تملأ الساحات المفتوحة، وتغني أبناء العروبة الغيورين عليها بكل جديد مُواتٍ لمقاصده يلائم موقعة بقدرة وتمكن ناجحين.

إلّا أن هذا الانطلاق العفوي بالقدرات المذكورة لا يكفينا الآن مؤونة صراع العَولَمة في ظل الغزو الثقافي الحاقد ومخططات الإرهاب الدولي وغارات التبويش بالقذائف، وأساليب القهر والعدوان وابتزاز ضمائر سدنته في كل مكان. فلا بد من تفهُّم تلك القدرات واستيعاب أبعادها، لنهيئ لها التربة الطيبة والبيئة الصالحة والأجواء

المواتية للتوالد المتكاثر والسماحة في النجدة والعطاء. فإذا أسعفناها بمحبّة وتفان وإخلاص فتحتْ لنا قلبها الدافق بالحيوية الأبدية الخالدة، وملأت حياتنا بأنساغ من التعبير البياني المتجدّد مع الأحداث والمفاهيم والأعمال والعاطفة والخيال.

ومن خلال هذا التعاون بين القدرات اللغوية والنشاط العربي المخلص الوفي، نستطيع تهيئة الطاقات الفعّالة لاستنباطها واستدرار منابعها وتوظيفها في الحياة اللغوية، بحيث تكون على استعداد مستوفز للإمداد بعناصر التعبير والخطاب وعلى تحفز دائم لتلقف سيول الغزو والإرهاب والعولمة، فتصمد بنقاء واستقلال واستعلاء، وتحفظ لنفسها سمة الخلود وتحقيق الذات.

وهذا يقتضي منا أن ندرس بوعي كل قدرة على حدة، نرصد الحقول المستهلكة فيها وما تحفظه لنا من خلايا مهيّأة للعطاء، ونتتبع أصول تحقق المستهلكات وأساليب جريانها في إنجاز الكلام، لنعرف طبيعة الأنماط التاريخية للعناصر وكيفية تسرُّبها إلى مناصب التعبير وما يمكن أن ينطبق من ذلك على حاضرنا اللغوي ومستقبله أيضًا. ومن هذه الدراسة ندرك وظيفة كل قدرة وحدود إمكاناتها والمساحات التي يمكن أن تملأها في إبان الحاجة.

فتقاليب الخليل تقدّم لنا خلايا نابضة بالحياة، تنتظر الزرع في حنايا اللسان العربي، وأصول ابن فارس تمدنا بالدلالات المعجمية العامة لتلك الخلايا ولِما يشبهها في المستهلكات اللغوية، لنصل هذه الدلالات بتلك الخلايا المتطلعة إلى الخدمة والوفاء. ثم إن الاشتقاقَ الأكبر يهيئ لنا المعاني الخاصة التي تحتملها التقاليب العُطل في المواد المختلفة، والاشتقاقَ الكُبار بفتح لنا باب التبادل اللفظي بين المفردات مع الاحتفاظ بالأصول العامة للمعنى. ومن مجمل تلك المعطيات نكوّن نظرية مستقبلية لصناعة الكلم في معمعان الصراع من أجل البقاء والاستقلال والبناء.

ثم نضع لهذه الحصيلة النظرية برامج علمية وفنية تناسبها، وتستوعب مراميها ودقائق تصرفاتها وعمق أغوارها، وتكون صالحة للاستخدام في أجهزة الكِبتار: الكمبيوتر. وبعد إنجاز هذه البرامج وتجربة صلاحيتها وقدرتها على معالجة النظريات ونقلها إلى حيّز المواد الاستهلاكية الحاضرة للعطاء، نغذّي الأجهزة بها وبالحصائل النظرية المستنبطة، فيكون لدينا لقاء وتعاون بين البرامج والمفاهيم، يُنتَج من تفاعله معطيات لغوية تناسب التجارب والمعلومات والمقاصد المتولدة في جنبات الحياة.

وهـذا يعني تعاون اللجان اللغوية المختصّة ورجـال البرمجة الفنية والإجراءات التنفيذية لقدرات الكِبتار، في وضع خطة عملية تفهم حقيقية الطاقات اللسانية وقدرات الأجهزة على التلاؤم والانسجام مع تلك الطاقات وجعلها حاضرة في الذاكرة لمد اليد بالعون ومواتاة المطالب المتلاحقة. وبهذا نستقبل كل جديد بما يناسبه من المفردات والتراكيب والتعبير، نعمّمه في ميادين الحياة عامة والبلاد العربية، ونكون قد استفدنا من القدرات الذاتية لعروبة اللسان ومن جهود القدماء وتجاربهم في اكتشاف طاقات خارقة لهذه اللغة الكريمة ومن معطيات الآلات الفنية المعاصرة بحكمة وخبرة وتقنية فعالة معطاء.

بيد أن هذه الإجراءات العملية الفنية لا تكفي أمام التصرفات المخزية من بعض رجال الإعلام والأعمال والمال والمروجين لمباذل الفرْنَجة وكل تعبير مستورد هجين، لأن استجابتهم للغزو والعولمة تعرقل مسيرة التنفيذ، وتنشر في وجه العروبة الخالصة بقعًا قاتمة، وتفتح ميادين للصراع والتهديم. ومن ثَم تحتاج تلك الإجراءات أن يرافقها أو يسبقها إعداد المُناخ الصالح لاستقبالها، والاستفادة العملية منها. وذلك يقتضي ما يلي:

* اسـتعمال اللغـة الوُسـطى فـي الحيـاة العامـة بين النـاس جميعًا، وإشـاعتها تهيئـة للتفصيح.

* فـرض الصحّـة اللغويـة فـي جميـع وسـائل الإعـلام مـع الرقابـة الشـديدة بالثـواب والعقـاب.

* تكوين المهارات اللغوية في التعبير والقراءة الصامتة والجهرية والكتابة والفهم والإنتاج للعلم والأدب.

* الرقابـة اللغويـة لـكل مـا ينشـر مـن الكتـب والدوريـات ومـا يعـرض مـن اللافتـات والدعايـات.

* توجيه المصادر المقروءة، ليكون فيها الضبط اللازم فقط، مع التوظيف الجيد لعلامات الترقيم.

* إزالـة تخطئـة ما هـو صواب لأنه جائز في لهجة صحيحـة أو مذهب نحوي معتبر.

* إحلال الرغبة والمحبة للعربية والتراث بدلًا من الترهيب والتعقيد وتضخيم المسؤولية بالأوهام.

* إيجاب استعمال الصحّة اللغوية في التدريس لجميع المقررات مع الحوار بما يناسب مستوى الطلاب.

* تدريب الطلاب على القراءة الصامتة الفصيحة والقراءة الجهرية المتقنة في المدارس الابتدائية.

* الغرس في النفوس أن استعمال الفصيح سُنّة نبوية لدى المسلمين وواجب وطني وديني على غيرهم.

* تنمية الاعتزاز بالعروبة، ورفض التثبيطِ لنجاح فصاحتها والاغترارِ بمظاهر الأمم الغربية.

* تمييز النحو العملي ليكون مما يدرسه جميع الطلاب بحسب مستوياتهم.

* متابعة الغاية من ذلك في: التعبير السليم، والقراءة والكتابة الصحيحتين، والإنتاج الأدبي.

* حصر النحو العلمي في أقسام اللغة العربية والأدب بالجامعات وفي الدراسات الشرعية.

* تبيين الغاية من ذلك في: متابعة ما ذُكر قبل، والتعليم اللغوي الجيد، والبحث العلمي.

* الممارسة العملية لِما يدرس من العربية في الحوار والكتابة والقراءة.

* التدريب على قراءة النصوص الأدبية وحفظ الكثير من الآيات والأحاديث والشعر والنثر.

* تشجيع الدراسات اللغوية والأدبية وإكثار الحوافز لمدرّسي العربية بإعداد القدوة الصالحة.

* توظيف الحديث الشريف في البحث اللغوي والنحوي.

* تعريب مناهج التعليم وبرامجه في جميع المستويات حفظًا للكرامة العربية من المهانة والصَّغار.

* تأخير تدريس اللغات الأجنبية إلى المرحلة الثانوية، وجعل دراستها اختيارية.

* تهميش دراسة اللغات الأجنبية في المستويات الجامعية العليا، لتكون لمن يحتاجون إليها فقط.

* توجيه البعثات إلى الغرب بأن تكون لمن أتقن العربية واستوعب ثقافتها ونال إجازة علمية.

* تعريب البحث العلمي في الجامعات والمعاهد والمخابر وسائر القطاعات الخاصة والعامة.

* ترجمة المصطلحات وأسماء الأدوات والآلات والأجهزة والأشياء المستوردة والمحلية.

وبمشاركة هذه العمليات الفعالة، وتعاونها في ميادين التربية والتعليم والإعلام والتوجيه[1]، نستطيع أن نهيّئ التربة المستعدّة لاستقبال ما تُدرّه علينا متابعة القدرات الذاتية لعروبة اللسان، فننثر البِذار الصالحة في الأرض الطيبة والنفوس المتعطشة للعمل الكريم، ونرعاها بالعناية والحماية والتوجيه. لا غرو بعد هذا كله أن ترى الأرض قد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

***

أنهيت قراءة هذا الكتاب للمرة الثانية في سبع جلسات كلها في الباصات، آخرها عصر يوم الاثنين ٨ تموز ٢٠٢٤م.
أبو عبد الله الزناف

(١) انظر المهارات اللغوية وعروبة اللسان ص ٢٩ ـ ٩٢.

adadd3a3

المحتوى

* * *